تاريخ

يكتبه أهل الفن



دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

تاريخ مصر

يكتبه أهل الفن

تاريخ مصر يكتبه أهل الفن

حنفي المحلاوي

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
أحمد غريب

الكتـــــــاب : تاريخ مصر يكتبه أهل الفن

المؤلـــــــف : حلمى المحلاوى

تاريخ النشر : ١٩٩٨م

الناشــــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

ت ، : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ٢٤٠١٧٤٣

فاكس : ٢٤٠١٧٤٤

التـــــوزيـــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)

المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

رقـم الإيـــداع : ٩٨/٩١٦٢

الترقيـــم الدولـى : ISBN

977-303-029-6

تاريخ مصر
يكتبه أهل الفن

- سيد درويش
- أم كلثوم
- زكريا أحمد
- روز اليوسف
- حكمت فهمى
- منيرة المهدية
- بديعة مصابنى
- امتثال فوزى
- تحية كاريوكا
- محمد عبدالوهاب
- محمود المليجى
- كمال الطويل
- حمدى أحمد

❁ المقدمة

لايمكن بأى حال من الأحوال حين نتحدث عن تاريخ مصر الحديث.. خاصة فيما يتعلق بتوقيت انبعاث الحركات الوطنية ونمو الوعى القومى الذى كان يقف بقوة وراء كل الثورات التى فجرها الإنسان المصرى ضد الحكام الظالمين، وضد قوات الاحتلال.. أقول لايمكن فى هذه الحالة أن ننكر أن هذا التاريخ الوطنى المضىء قد تزامن بجلاء ووضوح مع انبعاث الحركات الثقافية والتنويرية التى بدأت تغزو المجتمع المصرى كله مع أوائل هذا القرن.. حتى أن المؤرخ أو الباحث أو الدارس يظن أن تلك الحركات الثقافية- التى انبعثت بقوة داخل عقل وقلب المصرى... وبأشكالها المختلفة الفنية وغير الفنية،- كانت هى الأساس الذى بُنى عليه ذلك الوعى.. والذى كان وراء نجاح كل حركات الانتفاضة التى كانت تهب بين الحين والحين خاصة ضد الحكام الطغاه ثم ضد قوات الاحتلال.

ولاشك كان لانبعاث تلك الحركة الثقافية - والتى زودت الوعى القومى بالوقود المشعل دائما- العديد من المنابع والمصادر، التى كان يأتى فى مقدمتها بطبيعة الحال انتشار التعليم، وإقبال معظم طوائف الشعب المصرى بلا تفريق على تثقيف وتعليم أنفسهم وبناتهم أيضا.

وكان لانتشار التعليم إلى جانب ذلك فضله الكبير فى إقبال الإنسان المصرى على الحياة وعلى المشاركة فى قضايا وطنه ومشاكله، ومحاولة التعبير عن تلك القضايا بشتى الصور الأدبية والفكرية.

كما كان للفن باعتباره المصدر الثانى من مصادر ومنابع تلك الحركة الثقافية فضل أخر فى مجال زيادة الوعى الوطنى، وقد أصبح رافداً أساسياً

من روافد تلك الحركات التنويرية.. حيث تزامن أيضاً مع تاريخ الوطنية المصرية فى العصر الحديث..

وصحيح أن الفن فى مصر فى هذه الفترة قد بدأ على استحياء من حيث مشاركاته الوطنية إذ إرتبط فى مشواره الأول بالتقليد.. إلا أنه وحتى فى مرحلة التقليد هذه.. كان الفن يسعى بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة لتغذية العقل والقلب المصرى وتوعيته بقضاياه ومشاكله السياسية والوطنية.

ثم سرعان ماتطور الفن المصرى بكافة أشكاله وألوانه حتى وصل إلى قمة التألق.. وبالتالى أصبح بالفعل المؤثر الحقيقى والباعث الأول للروح الوطنية المصرية والتى تجلت بقوة من خلال مواقفه المشرفة تجاه قضايا المصيرية فى فترات التاريخ المتباعدة. خاصة من بعد الحرب العالمية الأولى وإلى الآن.

وطابور الفنانين المصريين وغير المصريين، من الذين ساهموا بدموعهم ودمائهم وكلماتهم وألحانهم فى بعث هذه الروح الوطنية وتسجيل أشرف اللحظات خلال الأزمات التى مرت بها مصر خاصة أثناء الإحتلال البريطانى — طويلة جداً.. وهو يمتد بحق منذ عام ١٩٠٠ وحتى الآن — وقد حفلت بهم وبأدوارهم الفنية على وجه الخصوص عشرات.. بل المئات من الكتب.

ونحن فى هذه الأوراق.. سوف نحاول أيضا أن نلقى الأضواء المبهرة على أهم تلك الأدوار الوطنية المتميزة التى عايشها هؤلاء الفنانين بل ومساهماتهم الكبيرة فى تسجيل وكتابة جزء من تاريخ مصر الحديث.

وقد عاصر قطاع عريض من هؤلاء أحداثا سياسية ووطنية ساخنة.. لم يلتفت إليها الكثير من المؤرخين.. حيث بهرتهم الأضواء التى كانوا دائما

يقفون أسفلها سواء فوق خشبة المسرح أو أمــام الكـاميرات وبالتـالى ضـاعت معالم تلك المساهمات وسط هذه الهالات الضوئية المثيرة.

من ذلك نجد أن الفنان المصرى رغم انشغاله دائما بالنجومية والبحث عن الشهرة لم ينس أبداً قضايا بلاده.. بل كان دائما يسـعى فـى الوقـت نفسـه لكى يكون فى مقدمة المشاركين فى تلك القضايا. وقـد اختلفت المسـاهمات.. بين مشارك فى توزيع منشـورات سياسـية مثلمـا فعل الملحن الكبير زكريـا أحمد، وبين الخروج فى المظـاهرات وترديـد الأناشـيد الوطنيـة، بـل وتأليفهـا وتلحينها مثلما كان يفعل كل من الموسيقار العظيم سيد درويش والفنانـة روز اليوسف.. ومحمود المليجــى وآخريـن. وبيـن مسـاهم فـى الأحـداث السياسـية وتولى المناصب السياسية مثل الموسيقار محمد عبدالوهـاب وكمـال الطويل وحمدى أحمد وآخرين.

بل وأكثر من ذلك وكمـا سـوف يمـر علينـا.. كـان هنـاك مـن الفنـانين والفنانـات مـن الذيــن ســارعوا لحمــل الســلاح وتدعيـم المقاومــة وأعمــال الفدائيين.. ويأتى فى مقدمة هؤلاء الفنانة الكبيرة تحية كاريوكا.

حنفى المحلاوى
حدائق القبة– القاهرة
ديسمبر عام ١٩٩٧

(١) سيد درويش



الزعـيم الفنى
لثورة ١٩١٩

في عام ١٩٦٠، أى منذ مايقرب من ثلاثين عاماً.. كتب الناقد والمؤرخ الموسيقى الدكتور "محمود الحفنى" محذراً الذين يتحدثون عن الموسيقار الخالد سيد درويش على أنه من أبطال الوطنية المصرية .. وقد قصد بذلك، أن نخرج هذا الفنان الخالد من دائرة اهتماماتنا به كفنان وكموسيقار عبقرى إلى منطقة أخرى تصورها الدكتور الحفنى ربما لاتفى بمكانة سيد درويش!!.

ونحن ننقل هنا ما ذكره عن ذلك بالحرف الواحد حيث قال : "يحاول البعض من حملة الأقلام أن يصوره – أى سيد درويش – داعية من دعاة السياسة، وأنه كان هو الترجمان لثورة ١٩١٩.."

وفى تعليله الرافض لهذا الدور التاريخى الكبير لموسيقانا العظيم ذكر الدكتور الحفنى : "وأقول إن هؤلاء إذا تُرك لهم الطريق فإنها ستصبح ضمن الشائعات التى تتضخم كلما تباعد بها الزمن، ويومئذ يتعثر التاريخ وتلتبس فيه الأمور، وتختلط الحقائق بالأخيلة".

وفى عام ١٩٩٠.. أى منذ ما يقرب من ثمانى سنوات.. كتب الشيخ "حسن درويش إبن راحلنا العظيم سيد درويش يقول عكس ذلك تماما.. من واقع ما قدمه من حيثيات.. رأى أنها السبيل الحقيقى لوقوف الملحن الكبير سيد درويش فى مصاف الوطنيين المصريين من الذين حملوا مشاعلها وأضاءوا بها طريق التاريخ الجميل.

وقد رأى الشيخ حسن أن والده بالفعل كان من دعاة ثورة ١٩١٩. بل وكان من زعمائها أيضا. وهذه الزعامة تجلت فى رئاسته للثورة الفنية التى واكبت الثورة السياسية والثورة الشعبية.

وبصرف النظر عن الوقوف عند أى الرأيين وأيهما أصح.. نود أن نشير إلى نقطة فى غاية الأهمية.. وربما تساهم فى وضع حد للخلاف بين وجهتى النظر هذه، وهى أن تاريخ مصر إبان الحرب العالمية الأولى وما قبلها وما بعدها أيضا.. شهد بقوة تأثير الفن المصرى ووقوفه إلى جانب كل الأعمال الوطنية والشعبية التى انطلقت فى ذلك الوقت بعفوية شديدة، ووقعت بدون ترتيب مسبق.

ومعنى تجاوب الفن المصرى بكل ألوانه خاصة الغنائى والموسيقى.. أن القائمين على هذه الفنون وبكل أشكالها أيضا.. كانوا وطنيين من الدرجة الأولى وقد أثروا وتأثروا بأحداث مصر فى هذه الفترات مع وجود حالات من الإنكسار والخمول تبعاً لحرارة الحدث الوطنى نفسه.

معنى ذلك أن الفنان فى مثل تلك المواقف والمواقع يتحول من تلقاء نفسه – وفقا لما بداخله من مؤثرات ومكنونات شعبية ووطنية مصرية خالصة – إلى مقاتل أوعلى أقل تقدير إلى مولد لوقود هذه الأحداث حتى تظل ساخنة مع الأخذ فى الاعتبار أننا نتحدث عن فترات تاريخية شهدت أحداثاً وطنية لم تكن تفرق بين زعيم سياسى أو زعيم فنى.

وعلى أية حال.. فإننى أميل كثيراً إلى القول بأن الشيخ سيد درويش هو فعلاً من دعاة ثورة ١٩١٩.. بل ولن نغالى هنا إذا ماقلنا أيضا وفى هذا السياق أن الموسيقار الخالد.. هو بحق الزعيم الفنى لتلك الثورة.. وقد ساهم بفعل هذه الزعامة فى إشعال ثورة ١٩١٩ جنبا إلى جنب مع الزعيم السياسى سعد زغلول.

ولاشك أن تلك الزعامة الفنية التى اضطلع بها فنان كبير وخالد مثل سيد درويش لم تكن لتأتى من فراغ.. بل كان لها دوافع ومؤثرات عديدة عاصرها الشيخ سيد درويش نفسه سواء داخل مجتمعه الأول بالإسكندرية أومجتمعه الثانى بالقاهرة.

ويكفى أن نذكر أيضا فى هذا السياق.. أنه كان من المقرر أن يلتقى الزعيمان "سعد وسيد" معا فى حفل واحد بمناسبة رجوع الزعيم الأول من منفاه في عام ١٩٢٣، لولا أن عجلت المخابرات البريطانية بالقضاء على الزعيم الثانى خشية التقاء القطبين الكبيرين، مما سوف يكون له أكبر الأثر فى إعادة الروح الوطنية للثورة والتى تصور البريطانيون المحتلون لمصر فى ذلك الوقت أنها قد خمدت بعد إلقاء القبض على زعيمها السياسى سعد زغلول.. ولكن خاب هذا التصور فى ظل وجود زعيمها الثانى فوق أرض مصر، يشحذ همم الناس وينفخ فيهم بالوطنية التى عَرف طريقها بالألحان وبالكلمات الحماسية.

والمتابع لنا سوف يكتشف مدى الوطنية المتألقة التى كان عليها سيد درويش حتى وهو خارج دائرة الفن من الذين عاصروا وشاهدوا بل وشاركوا فى العديد من أحداثنا القومية والتاريخية.. فى فترة الحرب العالمية الأولى وماقبلها بسنوات عديدة، وتاريخ حياة الشيخ سيد درويش يقول لنا ذلك واكثر..

فمن المعروف أن الشيخ سيد درويش البحر ولد فى ١٧ مارس عام ١٨٩٢ فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى ابن الخديوى توفيق.. ولو دققنا النظر فى هذا التاريخ سوف نكتشف انه جاء بعد عشر سنوات بالضبط من احتلال بريطانيا لمصر فى عام ١٨٨٢.

وفى عام ١٩٠٩.. عاش الشخ سيد درويش حدثاً كبيراً زلزل كيان مصر كلها.. عندما وقع حادث دنشواى، ورغم أن هذه المأساة الكبيرة قد حركت المشاعر الوطنية والأدبية داخل نفوس رجال مصر من السياسيين والأدباء. إلا أن أحداً من الفنانين لم يجرؤ أن يؤرخ لهذه المأساة فى ملحمة غنائية سوى شاعر القرية أبو ربابة.. والذى كان يعيش فى ريفه بعيدا عن الرقابة الاستعمارية، وقد استطاع هذا الشاعر الفنان أن يجعل من غنائه بوقاً يستثير به مشاعر الوطنية ضد الاستعمار، وقد أخذ يحكى على أرغوله ما عاناه أهالى دنشواى من بشاعة الاستعمار وظلم عملائه.

فى هذه الفترة المليئة بالأحداث التاريخية الساخنة استهل الشيخ سيد درويش البحر حياته الفنية بمدينة الإسكندرية فالتحق بالعمل أولا مع فرقة الأستاذين "سليم وأمين عطا الله" وقد لحن لهذه الفرقة مجموعة من الأناشيد الحماسية التى جمعها الفنان الممثل "سليمان القبانى فى كتابه "بغيه الممثلين"

ومما يرويه الشيخ "حسن درويش" من ذكريات عن والده فى هذه الفترة المبكرة من حياته. أنه فى يوم ١٠ ابريل عام ١٩١٠ وصل إلى ميناء الإسكندرية الفنان جورج أبيض عائداً من بعثته التى قضاها فى فرنسا لدراسة فن التمثيل على نفقة الخديوى عباس حلمى وقد اهتمت الصحافة آنذاك بمتابعة مشوار هذا الفنان العائد كما بدأت الأوساط الفنية والاجتماعية تتناقل أخباره بإهتمام.

وكان طموح سيد درويش يصور له أن الخديوى عباس حلمى الذى وافق على إرسال الأستاذ جورج أبيض فى بعثته على نفقة الخديوى الخاصة إيماناً منه برسالة فن المسرح.. وإن هذا الاهتمام الرسمى بالفنون وكما هو واضح من تصرفات الخديوى شجع سيد درويش على أن يتقدم إلى الخديوى

بطلب يلتمس فيه الموافقة على إرساله فى بعثة موسيقية يستكمل فيهـا تعليمـه الفنى، وأرفق مع هذا الطلب دوراً غنائياً.. ألفه خصيصا ليشفع له فى طلبـه، وراعى سيد درويش فى تأليف هذا الدور أن يكون مجموع الحـروف الأولـى من شطرات الدور تجمع اسم "عباس حلمى" خديوى مصر.

وتعلق طموح سيد درويش بهذا الأمل الذى شاء القدر ألا يتحقق إذ اكتفـى الخديوى بمنح سيد درويش مكافأة مالية قدرها ٢٠ جنيها وكان سيد درويش يأمل أن يرعاه الخديوى أسوة بما اتبعه مع الفنان المسرحى جورج أبيض .

وقد صمم سيد درويش آنذاك على أن يرد هذه المكافـأة إلـى الخديـوى معلنا رفضه هذا العطاء حيـث ثـارت نفسـه ، غـير أن الأصدقـاء المخلصيـن حالوا بينه وبين تنفيذ تلك الرغبة خوفا عليه من بطش وغضب الخديوى .

ولم يكن رفض الخديوى لطلب سيد درويش إلا نقطة تحـول هامـة فـى مسيرة حياة ذلك الفنان الناشـئ ، وبدايـة جديـدة ولـدت فـى أعماقـه.. رفضـه للخديوى ، وبالتالى أبعدته بأحاسيسه عن التردى فى أسـاليب النفـاق والريـاء ترضية للحاكم ، لاسيما أن الخديوى عباس كان قد فقد شعبيته بسبب التواطؤ مع الاحتلال البريطانى ضد الحركات الوطنية.

وظل هذا الفنان الثائر يتحسس مشواره الفنى.. بعد ما اتجه بكـل فكـره ناحية أبناء الشعب من المصريين. حتـى قيـام الحـرب العالميـة الأولـى عـام ١٩١٤، واعلان بريطانيا الأحكام العرفيـة واسـتبدال الخديـوى عبـاس حلمـى بعمه السلطان حسين كامل .

وقـد أثـار هـذا التدخـل الاسـتعمارى مشـاعرالمصريين الوطنيـة ومـن الإحساس بأنهم ظلموا الخديـوى حين أسـاءوا الظـن بـه ممـا نتـج عنـه تولـد عاطفة حب جديدة أعادت إلى عباس حلمى مكانته وشعبيته فى النفوس .

وبهذه المشاعر الوطنية عاود سيد درويش ترديد دور " عواطفك دى أشهر من نار"، وأصبح غناء هذا الدور يأخذ موقفا فى التعبير عن عدم الرضا عن قبول السلطان حسين للحكم فى ظل الأحكام العرفية التى فرضها الاستعمار البريطاني آنذاك.

وكانت الرقابة وعملاء الاستعمار الذين كانوا يلتفون حول الخديوى عباس يعرفون مقاصد هذه الكلمات فى هذا الدور فصادرته الرقابة ، ومنعت تداوله وغناءه في المجتمعات من قبل أن يوقظ مشاعر الناس ويتسبب فى إيقاظ الوعى السياسى .

وبطبيعة الحال لم يكن فى ذهن الشيخ سيد درويش أية حسابات عندما ألف ولحن هذا الدور. وأن يكون لكلماته هذا الشأن الكبير . وكأن القدر أراد بمصادرة غناء هذا الدور أن يجعل منه أول مواجهة سياسية أيقظت فى سيد درويش الإحساس بالفن السياسى بدليل أنه حينما إنتهت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٧، وبعد فشل الشعب المصرى فى الحصول على حقوقه السياسية فى ظل مبادئ الرئيس الأمريكى "ولسن"، والتى نصت على أحقية الشعوب فى تقرير مصيرها.. حاول بعض زعماء الشعب برئاسة سعد زغلول السفر إلى باريس لعرض قضية استقلال مصر من خلال مؤتمر الصلح الذى كان سيعقد بين الأطراف المتحاربة. وظهرت نوايا السلطات الاستعمارية فى عدم السماح لزعماء الشعب بالسفر.. كما صدرت التعليمات المشددة بحرمان الشعب من ممارسة الأنشطة السياسية، وعدم عقد أية مؤتمرات شعبية.

ونتيجة لذلك ظل الشعب المصرى يعيش متألماً تحت وطأة الأحكام العرفية التى فرضتها بريطانيا منذ قيام الحرب. وكل هذه الضغوط عبأت

نفسية هذا الشعب العظيم بالسخط، وعاش فى كبت فوق فوهة بركان ساخن كان مهيأ للانفجار الثورى فى أية لحظة.. وقد حدث الانفجار بالفعل حين أقدمت السلطات البريطانية على اعتقال أربعة من الزعماء السياسيين وكان على رأسهم سعد زغلول.

ونقترب أكثر وأكثر بهذه السطور التاريخية من الدور الوطنى الكبير الذى لعبه موسيقار الشعب سيد درويش فى أحداث هذه الثورة والتى اجتاحت كل أرجاء مصر.. ولقد رأينا من قبل الوقوف على تفاصيل ذلك الدور الوطنى، ضرورة إلقاء بعض الأضواء المبهرة على المؤثرات الوطنية التى فرضت نفسها على قلب وعقل الشيخ سيد درويش، وجعلت منه شعلة مضيئة وسط أحداث ثورة ١٩١٩.

وكما هو معروف، فإن أولى هذه المؤثرات، والتى تركت بصماتها الواضحة على مسيرة حياة هذا الموسيقار العظيم فى سلك الوطنية، ما كان يراه فى بيئته الأولى التى كان يعيش فيها بمدينة الإسكندرية. ففى حى "كوم الدكة" حيث ولد وعاش السيد درويش، شاءت الظروف أن يشهد ذلك الحى بوادر وطنية اسرة هذا الطفل وسط الأجواء غير المريحة والمستفزة التى خلفتها سلوكيات قوات الاحتلال البريطانى التى كانت تقف على مقربة من هذا الحى. بعد ما احتلت طابية كوم الدكة. من بعد فشل الثورة العرابية.

كما شب الطفل سيد درويش فى فترة صباه ليجد نفسه صورة من الشعب الذى ولد وعاش وسطه، وقد شاءت الظروف أيضا أن تأتى هذه النشأة المبكرة. وسط الأحزان والآلام التى جرها المستعمر مع أساطيله إلى شاطئ الاسكندرية الى حيث ظلت هذه المدينة منذ الحملة الفرنسية وحتى

الحملة البريطانية فى حالة غليان مستمرة. كما جعلت أهلها فى توثب مستمر من أجل تخليص الوطن مما أصابه من جراء هذه الحملات العسكرية.

ولاغرابة أن تدخل هذه المعانى فى كيان طفل عاش وروح الحياة مشبعة بكل هذه المشاعر التى يخفق لها قلب كل فرد من أفراد هذه المدينة الباسلة، حيث شاهد بعينه.. أوسمع من سلفه كيف كانت أنهار الدماء تجرى بأيدى الغاصبين على تتابع دولهم بما كان يخضب جدران تلك المدينة بالجراح، ويحمل سكانها على الهجرة أفواجاً إلى البلاد المتاخمة لمدينة القاهرة.

ليس هذا فقط.. بل وتصادف أن يكون حى كوم الدكة الذى ولد وعاش فيه الشيخ سيد درويش حتى سن الثالثة عشرة من عمره، من أكثر الأحياء التى إرتبطت بالتواجد البريطانى على أرض مصر .. لقد كان الأهالى يشاهدون صباحاً ومساء جنود الإنجليز كل يوم حيث كانوا يحتلون طابية كوم الدكة بعد ما أقصوا عنها الجنود المصريين بعد هزيمة عرابى.

ومن أجل أن نتبين مدى تأثير تلك المكونات الوطنية التى ترسبت مع مرور الأيام والشهور والسنوات داخل عقل وقلب السيد درويش، كان علينا كذلك أن نقف على بعض ملامح حياة هذا الموسيقار العظيم منذ يوم مولده وحتى يوم رحيله.

فبعد أن بلغ الطفل السيد درويش البحر من العمر ٥ سنوات ألحقه أبوه صاحب ورشة النجارة بكتاب الشيخ حسن حلاوة لحفظ القرآن الكريم.. وكان يوجد بهذا الكتاب مدرس شغوف بالموسيقى حيث لمس فى الطفل السيد إستعداداً يفوق زملاءه من الأطفال فى حفظ الأغانى والأناشيد، وبالتالى فقد كان يؤثره على هؤلاء بالرعاية والتدريب على ترديد وحفظ تلك الأناشيد.

وفى سن السابعة من عمرة مات أبوه.. فتعهدت أمه الحاجة ملوك.. بتربية ابنها الوحيد على أربع بنات. وإكمال تعليمه الدينى حتى يصل إلى الجامع الأزهر. فألحقته بمدرسة شمس المدارس. برأس التين بمدينة الإسكندرية. وفى هذه المدرسة الجديدة ظهر للطفل السيد درويش معلم آخر كان أكثر شغفا بتلقين الأطفال الموسيقى والأناشيد وكان السيد درويش فى مقدمة هؤلاء الأطفال.

ومن هنا يرى معظم المؤرخين أن الشيخ الصغير قد أمضى جزءاً كبيراً من حياته الأولى فى معين الموسيقى والأناشيد بدون أى تدخل منه وإنما القدر الذى تولى رعاية موهبته حتى النهاية كان يريد إكمال مسيرته لإعداده لحمل رسالة وطنية وفنية خالدة.

وفى عام ١٩٠٥.. حين بلغ السيد درويش الثالثة عشرة من عمره إنتقل إلى الفرقة الأولى بالمعهد الدينى الذى كان قد أنشىء آنذاك بمدينة الإسكندرية، وكان مقره مسجد أبى العباس المرسى. ثم انتقل إلى الفرقة الثانية بمسجد الشيخ الشوربجى، وظل خلالها مواظباً على الدراسة الدينية كما ظل يؤذن فى هذا المسجد طوال العام الدراسى.

إلا أن الموهبة الفنية التى تفتحت مبكراً بداخله ملكت عليه نفسه ولذلك لم يتمكن من الهرب من تأثيرها، فأخذ يسير وفق هوى تلك الملكة المتفردة ضارباً عرض الحائط بالدراسة فى المعهد الأزهرى.

وفى عام ١٩٠٩، وبعد انضمامه للعمل فى فرقة أمين وسليم عطا الله سافر مع هذه الفرقة لأول مرة إلى بلاد الشام.. لكنها كانت رحلة فاشلة فنياً ومادياً، الأمر الذى جعله يعتزل الفن مؤقتا بحثاً عن لقمة العيش.. وكان آنذاك قد تزوج لأول مرة ولم يبلغ بعد السادسة عشرة.

وفـى عـام ١٩١٢، وهـو العـام الـذى يـراه المؤرخـون عـام ولادة سـيد درويش الفنية، قام برحلته الثانية إلى بلاد الشـام، وقضـى هنـاك عـامين عـاد بعدهما إلى الإسكندرية مرة أخرى.. لكنه فى هذه المرة عاد عودة الفرسان.. فقد عرف الكثير من أصول الموسيقى الشرقية وأسرار الأنغام والألحان.

وتجددت إقامة الشيخ سيد درويش بمدينة الإسكندرية مـرة أخـرى مـع إطلالة عام ١٩١٤، وقد وصل فى هذه المرحلة إلى النضج الفنى الكامل ممـا أكسبه الثقة بالنفس والإيمان بقيمته الفنية.

وفى عام ١٩١٧ تحققت الخطوة الأخيرة فى حيـاة سيد درويـش حيـن جاءته الفرصة للسفر إلى القاهرة والإقامة بها إقامة دائمة وقد ظـل بهـا حتـى يوم وفاته عام ١٩٢٣، وكانت تلك الفترة بحق ووفقا لإجماع كـل المؤرخيـن فترة النضـوج والعبقريـة التـى أثمـرت أعظـم أعمالـه الموسـيقية والفنيـة كمـا شهدت الفترة نفسها نضوج سـيد درويش الوطنـى والسياسـى، وقـد أكـد ذلـك حتـى المستشـرقين الأجـانب.. فقـال أحدهـم ويدعـى "إدوار لويـس": إن سـيد درويش مرة يستوعب شعاراً مأخوذاً من كلمات مصطفى كامل "بلادى بلادى" أوقصيدة من هذه القصائد التى كانت تعج بها الصحافة المصرية آنذاك".

ومما هو مؤكد فى سياق الحديث عن الدور الوطنى للشيخ سيد درويش أن هذا الفنان العبقرى، كـان بلاشـك يـدرب نفسـه وألحانـه علـى المزيـد مـن العطـاء فـى المجـال الوطنـى وبـث الوعـى القومـى، وقـد أخـذت السـلطات البريطانية ترصد وبقوة نمو الوعى القومى داخل مصر فى هذه الفترة.. ولـم يكن أمام هذه السلطات الغاشمة من سبيل لضرب جذور هذا الوعى فى مقتـل إلا الانتقام من الذين كانوا يحملون لواءه سواء فى مجال السياسة أوالفن أوفى مجال الزعامة.

وللأسف كان سلاح المخدرات بكل أنواعها هو السلاح الغالب الذى اختارته المخابرات البريطانية للقضاء على هذا الوعى، وأيضا على رموزه.. وكان سيد درويش بطبيعة الحال فى طليعة هؤلاءالرموز، حيث فطنت السلطات البريطانية منذ فترة طويلة.. للدور العظيم الذى لعبه هذا الفنان فى مجال الفن الثورى، منذ مشاركته الأولى أثناء الأحداث التى خلفتها الحرب العالمية الأولى بالنسبة لظروف مصر السياسية والاقتصادية، وقد ظل دور هذا الموسيقار العظيم يزداد قوة وإشعاعاً حتى نشوب ثورة ١٩١٩.

ولاشك أن الوقوف على بعض ملامح هذه الثورة خاصة الأحداث التى تفجرت فى كل ربوع مصر بعد نفى زعيمها الأول سعد زغلول فى عام ١٩١٩ أو فى عام ١٩٢٣ سوف يفصح لنا بقوة عن مدى الغيظ والحنق الذى أصاب سلطات الاحتلال البريطانى من سطوع نجم الثأر الفنى الكبير سيد درويش وقيامه بحمل المشاعل لإضاءة الطريق نحو زيادة الوعى الوطنى والحماسة الثورية فى قلوب ونفوس كل المصريين وقد تفجرت عبقرية هذا الموسيقار العظيم خلال أحداث هذه الثورة ألحاناً نارية وكلمات لاذعة هزت أركان الإمبراطورية البريطانية التى لم يكن تغرب عنها الشمس.

ولقد ساهمت العديد من الظروف الفنية والإجتماعية فى تواجد هذا الفنان العبقرى فوق أرض معركة الثورة، خاصة حين وفد إلى مدينة القاهرة للإقامة بها بصفة دائمة، ولحسن حظ سيد درويش فإن العديد من معاصريه قد تحدثوا عن دوره الكبير فى إشعال وقود هذه الثورة بكلماته وألحانه المتأججة دائماً.

وكان على رأس من سجلوا انطباعاتهم هذه، وارتبطوا بسيد درويش إرتباط الأعضاء، صديقه الشاعر المبدع بديع خيرى الذى قال عن دور

سيد درويش فى الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩ : "لقد كانت الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩، وكنا نساهم فيها بفننا العظيم وبتطعيم مسرحياتنا بالألحان الوطنية الهادفة كلحن :

قوم يامصرى.. مصر دايما بتناديك

خد بناصرى.. نصرى دين واجب عليك

وكان سيد درويش يفرغ فى هذه الألحان الوطنية إيمانه القوى المتدفق، وكان توحيد الهلال والصليب منبعه مسرحنا "مسرح الريحانى".. فقد كانت التفرقة العنصرية على أشدها فى ذلك الوقت، ويزكى ضرامها سياسة الانجليز المستعمرين ويتجاذبها مؤتمران.. المؤتمر الإسلامى فى الحلمية الجديدة برئاسة "مصطفى رياض" باشا والمؤتمر القبطى فى أسيوط برئاسة "لويس أخنوخ فانوس".

وهددت هذه التفرقة.. الحركة الوطنية.. ورأينا أن ندعو لتآخى العنصرين بلحن انتشر من المسرح إلى الشارع، وجرينا جميعا أفراد الفرقة مع سيد درويش ونجيب الريحانى، وسرنا فى مظاهرة شعبية كبيرة ونحن ننشد هذا اللحن حتى وصلنا إلى مسجد ابن طولون حيث التقى الشيخ "مصطفى الغاياتى" بالقمص "سرجيوس" وتعانقا.

من ناحية أخرى أشارت كل من الفنانة فاطمة اليوسف والملحن الكبير زكريا أحمد للدور الوطنى والفنى الكبير الذى لعبه سيد درويش فى أحداث ثورة ١٩١٩، وذلك فى مذكراتهم الخاصة.

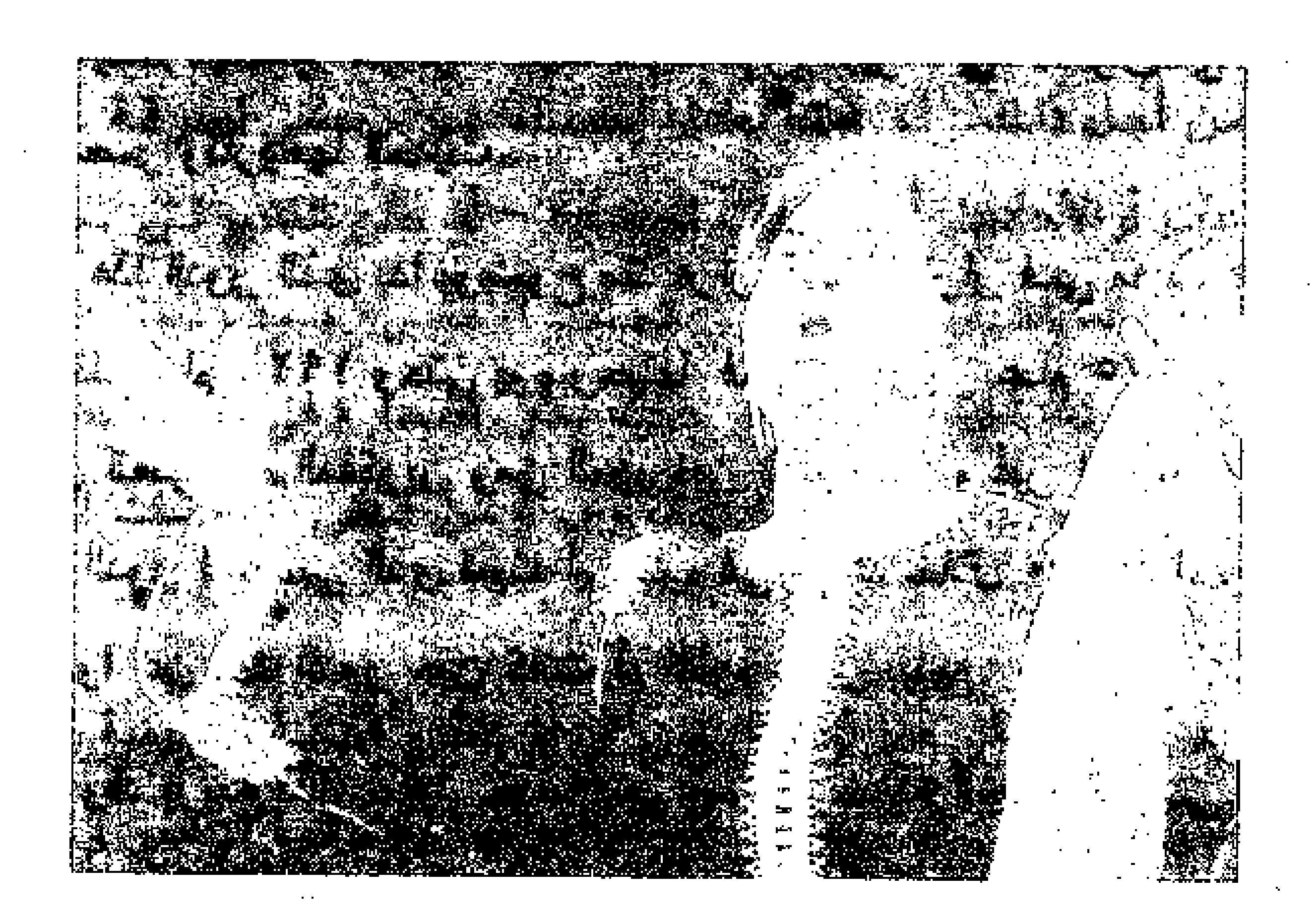
كما أكد العديد من المؤرخين فى هذا السياق أن الشيخ سيد درويش كان أيضا فى طليعة رواد الموسيقى العربية الذين تجاوبوا مع الشعور

الوطنى والشعور الشعبى العام، حيث إمتلأت كل ألحـان مسرحياته بالألحـان الوطنيـة قبل الثورة وبعدهـا. وكـان تـأثره بالوطنيـة عميقـا مـن دون التقيـد بالظروف التـى كـانت تفرضـها موضوعـات المسرحيات الغنائيـة التـى كـان يلحنها آنذاك. إذ ألف ولحن سـيد درويش مـن قبل ثـورة ١٩١٩ العديد مـن الأناشيد الوطنية.

كمـا ظـل كذلـك مرتبطـاً بثـورة ١٩١٩ مـن بعـد انفجارهـا فـى وجـه المستعمر البريطانى بعد نفى زعيمها سـعد زغلـول، وظـل فـى الوقـت نفسـه مرتبطاً بزعيمها سعد زغلول، بدليل أنه فى شهر أغسطس من عـام ١٩٢٣ وهـو العـام الذى عـاد فيـه الزعيم سـعد زغلـول مـن منفـاه الأخير بجزيـرة "سيشـيل" أخذ الموسـيقار سيد درويش يعد العدة فنيـاً مـن حيـث الكلمـات والألحان لإعداد نشيد أو قصيدة يرددها الجمـاهير وهـم فـى اسـتقبال الزعيـم لحظة وصوله إلى مصر.

وقد سافر سيد درويش خصيصـا إلى مسقط رأسـه بمدينـة الإسـكندرية من أجل إنجـاز هـذا العمـل الفنـى والثـورى والوطنـى الكبـير، إلا أن المـوت لاحقه فرحل عـن عالمنـا قبـل وصـول الزعيـم السياسـى لثـورة ١٩١٩ بأيـام قليلة. ومع ذلك فقد حفظ الناس لحن وكلمات سيد درويش واسـتقبلوا بـه سـعد زغلول العائد من منفاه.

(٢) أم كلثوم



تحدثت عنها صحف العالم
باعتبارها ناصرية

ليس من السهولة بمكان.. الحديث فى أية مناسبة عن أم كلثوم، بعيداً عن موقعها الريادى كسيدة للغناء العربى. وقد عرفناها أيضا شخصية إجتماعية مرموقة قدمت العديد من المساهمات فى هذا الجانب من أجل خدمة أبناء وطنها فى مصر وفى العالم العربى.

ولكن مالانعرفه كثيراً عن كوكب الشرق أم كلثوم، أنها إلى جانب ريادتها لفن الأغنية وتربعها على عرش هذا الفن لأكثر من نصف قرن، كانت أيضا شخصية سياسية، حيث لعبت دوراً كبيراً هى الأخرى فى مسيرة حياة مصر وتاريخها الحديث.

هذا الدور الذى بدا بوضوح منذ قرارها بالاستقرار فى مدينة القاهرة مع مطلع عام ١٩٢٤ وحتى يوم رحيلها فى ٥ فبراير عام ١٩٧٥..، ولقد توصل العديد من المفكرين ومن المؤرخين المصريين وغير المصريين إلى أهمية الدور السياسى الذى لعبته أم كلثوم فى حياتنا خلال ٥٠ عاماً، وإن لم يفصحوا عن ذلك الدور حين كانت أم كلثوم تعيش بينهم.

وقد يرجع ذلك.. إما خوفا من جماهير سيدة الغناء العربى... هذه الجماهير العريقة التى لم ترض سوى بأن تكون كوكب الشرق بينهم مطربة وفنانة فقط وسيدة للغناء العربى، وإما خوفاً من أم كلثوم نفسها التى كانت تردد سواء أمام هؤلاء أو من خلفهم أيضا.. أنها ليست سياسية.. بل هى فنانة وتخدم بصوتها قضايا مصر والعالم العربى.

هذا الجانب الجديد فى مسيرة حياة أم كلثوم قد فرض نفسه على المفكرين والمؤرخين والنقاد والصحفيين الأجانب.. حيث ربطوا بين مسيرة كوكب الشرق فى عالم الغناء وبين مسيرتها فى عالم السياسة.. إلى درجة

أنهم لم يفرقوا بين الجانبين.. بل واعتبروا أم كلثوم هى سيدة مارست السياسة من بوابة الفن.

وقد أستند هؤلاء فيما ذكروه عن أم كلثوم السياسية إلى العديد من المواقف والمساهمات السياسية الساخنة التى لعبت فيها أم كلثوم دوراً كبيراً سواء من قبل فترة ٢٣ يوليو أو من بعدها.. وإن تبلور ذلك الدور بشكل واضح أكثر من ذى قبل فى فترة حكم جمال عبدالناصر.. وقد أطلق عليها هؤلاء لقب أم كلثوم الناصرية

ومن أجل ذلك.. لو قمنا بعمل إحصاء غير رسمى لمعرفة عدد الموضوعات أوالأحاديث أوالتحقيقات الصحفية - أو حتى الكتب التى تحدثت عن أم كلثوم السياسية.. خاصة من الجانب الأجنبى- سوف نكتشف أن كوكب الشرق سيدة الغناء العربى قد احتلت مكان الصدارة فى هذا الإحصاء، إذا ما قيست بموقع غيرها من الفنانين العرب أومن فنانى أو فنانات العالم الثالث أيضاً.

ونود أن نشير فى هذا السياق إلى أن أم كلثوم الفنانة العظيمة رغم شهرتها السياسية أيضا. قد سيطرت بقوة حنجرتها وصوتها الذهبى وعلى مدى ٥٠ عاماً على مجريات الأحداث التى كانت تهتم بها كل الصحف والمجلات المصرية والعربية منذ مقدمها إلى القاهرة وحتى رحيلها.. فى حين انفردت معظم الصحف والمجلات الاجنبية بالإهتمام بأم كلثوم السياسية مع التنويه عن دورها أيضاً فى عالم الفن الذى كان طريقها الممهد للدخول إلى عالم السياسة من أوسع الأبواب..

وقد يظن البعض أن اهتمام الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء بأم كلثوم السياسية، قد بدأ مع أحداث ثورة ٢٣ يوليو عندما أعلنت أنها قطعت إجازتها السنوية لإعلان ولائها للثوار الجدد.

ولكن بالبحث والتنقيب وجدنا أن هذه الصحف بدأت تتبع خطوات هذه الفنانة العظيمة.. منذ أن شاركت فى إحياء أول حفل لعيد ميلاد الملك فاروق فى عام ١٩٣٧ فى قصر عابدين.. وكانت تقريبا هى الفنانة والمطربة الوحيدة التى سُمح لها بهذه المشاركة.. من دون غيرها من المشهورات آنذاك مثل منيرة المهدية وآخرين وأخريات.

وقد إمتد هذا الإهتمام إلى أحداث الحرب العالمية الثانية حين تنافست كل من ألمانيا وانجلترا على الاستحواذ على صوت أم كلثوم من أجل استخدامه فى حرب الدعاية بينهما خلال أحداث تلك الحرب.

وهذا ليس معناه فى واقع الأمر أن الصحف المصرية أو العربية لم تفطن لهذا الدور الذى تميزت به أم كلثوم إلى جانب تفردها فى عالم الغناء.. بل بالعكس، فقد توصلت معظم هذه الصحف إلى أن أم كلثوم هى سيدة سياسية من الطراز الأول، ووظفت فنها من أجل خدمة قضايا بلادها..

ولكن ماجعل اهتمام هذه الصحف بأخبار أم كلثوم الفنية بدلا من أم كلثوم السياسية هو إصرار أم كلثوم نفسها وفى كل ما كانت تصرح به من أنها فنانة وليست سياسية. وكان لأم كلثوم عشرات الأسباب التى جعلتها تتمسك بهذه الرؤية..

وما يجب التأكيد عليه فى سياق الحديث عن أم كلثوم السياسية أن هذا الدور السياسى المتميز لأم كلثوم لم يتبلور بوضوح خاصة بالنسبة لمواقفها

المتعددة حيال قضايانا الوطنية والقومية إلا من بعد فترة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.. وقد إرتبطت آنذاك إرتباط الزعماء بالرئيس جمال عبدالناصر.. حيث تحولت إلى مؤسسة إعلامية لخدمة أهداف عبد الناصر سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى.

وعلى أية حال فلولا ارتباط جمال عبدالناصر نفسه بالقضايا الدولية والتى جعلته مثار خلاف شديد بين دول الغرب لما أولت صحف هذه الدول كل هذا الإهتمام لأم كلثوم السياسية.. وكما سوف يمر علينا ذلك بعد قليل ومن السهولة بمكان أن نضع أيدينا على هذا التوقيت من واقع ما سجلته هذه الصحف وما ذكرته عن أم كلثوم السياسية.

والغريب فى الأمر أن إسرائيل هى الأخرى قد ساهمت إلى حد بعيد فى إلقاء الأضواء المبهرة على دور أم كلثوم السياسى.. وقد دخلت بذلك فى صراع الدول من أجل الاستحواذ على صوت أم كلثوم.

وهذه الرغبة الإسرائيلية فى حقيقة الأمر لم تنشأ بين يوم وليلة.. بل بدأت حقاً منذ أحداث عام ١٩٤٨ والموقف البطولى والمشرف لكوكب الشرق مع الضباط المحاربين فى الفالوجا.. الأمر الذى جعل إسرائيل تعلن حكم الاعدام غيابيا على أم كلثوم.. لكنها سرعان ما تراجعت عن هذا العمل الأحمق.. بعدما أحرزت انتصارها الأول على الجيوش العربية فى عام ١٩٤٨ وقد استعاضت عن ذلك بجمع كل تسجيلات أم كلثوم القديمة والجديدة.. ثم أخذت تذيع كل أغنياتها صباحاً ومساءًا.. سيراً على نهج حرب الدعاية التى فكرت فى تنفيذها ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، وكان من أول بنودها صوت أم كلثوم نفسه.

ويبدو أن هذه الخطوة هى التى دفعت الرئيس عبدالناصر لتخصيص موجة لإذاعة كل أغنيات أم كلثوم تفتتح بها الاذاعة على مدى عشر ساعات يومياً ولاتزال هذه الإذاعة معروفة لنا جميعا بإسم إذاعة أم كلثوم وإن تغير برنامجها الأن إذ لم تعد تقتصر على إذاعة أغنيات أم كلثوم فقط.

وكان الهدف بلاشك فى منتهى الوضوح.. وهو محاولة صرف آذان المستمعين المصريين والعرب عن إذاعة إسرائيل وحتى لايتعرضوا خلال فترة استماعهم لتلك الإذاعة إلى دعايات مغرضة.

ولم يقف أمر الاهتمام بأم كلثوم السياسية والفنية عند حدود ماتقوله الصحف المصرية.. بل امتد ذلك لمعظم الصحف العربية أيضا التى انشغلت هى الأخرى بمشوارها الفنى سيراً على تقليد ما تنشره الصحف المصرية، وإن تفوقت فى بعض الأحيان فيما كانت تنشره هذه الصحف من حيث الاشارة فى وضوح للدور السياسى العظيم الذى كانت تقوم به أم كلثوم.. خاصة خلال فترة ارتباطها بالرئيس جمال عبدالناصر.

وإلى جانب اهتمام الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء من كل جنس ولون بأم كلثوم السياسية والفنية كان هناك جانب آخر حظى بنفس الاهتمام، وقد تبلور فيما كانت تصدره دور النشر من كتب كان آخرها ما صدر عن الجامعة الأمريكية فى القاهرة احتفالاً بعيد ميلاد كوكب الشرق.

وقد تفردت أم كلثوم فيما يخص تأليف الكتب بظاهرة غير مسبوقة من دون غيرها من فنانى العصر الحديث هذه الظاهرة تبلورت فى الإقبال الغريب من جانب الصحفيين والمؤرخين والنقاد الأجانب لتأليف كتب بعينها عن أم كلثوم، بل وتعدى ذلك أيضا إلى تصوير بعض الأفلام التسجيلية

والروائية التى تحكى قصة هذه السيدة المعجزة والتى أعدتها معظم الصحف الأجنبية من أشهر سيدات القرن العشرين.

ولسوف نقف على مدى اهتمام الصحف الأجنبية بأم كلثوم السياسية حين نستعرض سوياً أهم ماجاء في بعض هذه الصحف على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر.

ففي عام ١٩٥٣ كتبت صحيفة "الديلى ميرور" اللندنية صفحة كاملة وصفت فيها أم كلثوم بأنها أقوى الشخصيات السياسية فى العالم العربى وأنها ساعدت على خلع الملك السابق فاروق بأغانيها الحماسية وأناشيدها للجيش، كما أسهمت فى تجميع الشعب حوله.

وكتبت صحيفة "الديلى ميل" عن أم كلثوم فى عام ١٩٦٧ تحقيقا بعنوان "صوت الحب من القاهرة" قالت فيه إن صوتا ينبعث بالحب والنقاء فى الشرق الأوسط هو صوت أم كلثوم التى بدأت حياتها الفنية بإنشاد الالحان الدينية فى قرى الوجه البحرى ثم بدأت تغنى على المسارح وسارت بخطى سريعة نحو الشهرة حتى أصبحت معشوقة الملايين.

وفى أغانى الحب التى تشدو بها تسحر المستمعين، وقد قيل إنه عندما هدد "روميل" القاهرة فى الحرب العالمية الثانية حرص البريطانيون على وضع اسم أم كلثوم على رأس قائمة الذين يجب على القوات البريطانية إنقاذهم حتى لاتصبح أكبر وسيلة للدعاية الألمانية.

وكتبت عن أم كلثوم مجلة "نيوزويك الأمريكية" فى عام ١٩٥٦ مقالاً لقبتها فيه بملكة العرب وقالت من بين ماقلته فى هذا المقال : إن صوت أم كلثوم ، هو الصوت المفضل المحبوب فى جميع أنحاء الشرق الأوسط.*

وفى عام ١٩٦٦ قالت هذه المجلة الأمريكية أيضا : إنها من أشهر سيدات الشرق الأوسط، وهى من أعظم مطربات العصر، وأنه إذا كان العالم العربى يختلف على كثير من الأمور.. فإن أمراً واحداً قد أدى إلى درجة عالية من الاتفاق بينه. ذلك هو شخصية أم كلثوم.

وفى صحيفة "اللموند" الفرنسية كتب الصحفى الشهير ج. ب "بيروتيسل هوغور" بعد رحيل كوكب الشرق يقول فى مقال له نشر تحت عنوان : "عزاء العرب وفرحهم" : كانوا يسمعون ليلا نهاراً وسيسمعون إلى أمد طويل صوت أم كلثوم تحت الخيام فى الصحارى وفى أسواق دمشق وجده، عبر إذاعة عربية واحدة من القاهرة تبث أغانيها فقط. صورها ستبقى مرفوعة فى كل مكان كقديسة.. فى المحلات، فى السيارات التاكسى وفى غرف الطلبة، وفى حمالات المفاتيح، وعلى البطاقات البريدية..

مطلقا لم تبع إسطوانات أحد كما بيعت إسطوانات أم كلثوم ولاحتى "البيتلز"، غنت فى معظم البلدان العربية، ومنذ سنوات غنت فى "الأولمبيا" فى باريس حيث حصدت نجاحا خرافيا.

ويجب مشاهدتها تدخل المسرح وسط الموسيقى الشرقية التى تعزفها أوركسترا مؤلفة من عشرات العازفين ووسط حماس وصراخ عدة آلاف من المشاهدين.

ويجب مشاهدتها جالسة باستقامة كلية كملكة على عرشها، خلال موسيقى الافتتاح التى يمكن أن تستمر نصف ساعة، ثم تقف وسط التصفيق الحاد وتغنى ساعة أو ساعتين دون توقف.

البعض تجرأ على اتهامها بأنها كانت "مخدر العرب" وأحد أسباب إنكساراتهم. وبصوت واحد كان الجواب حاسماً في كل الأمة العربية : "أم كلثوم عزاء العرب وفرجهم".

ولايمكن مقارنة العظمة التي وصلت إليها في العالم العربي ولاحتى خارجه إلا بعظمة عبدالناصر، موتها كما موت الرئيس، أثار شعور الوحدة والحزن العميق عند العرب. في كافة طبقاتهم.

***

وفي مقال آخر كتبه أيضا الصحفي "دانييل كو" ونشرته صحيفة "اللموند" جاء فيه: تبدو لنا أم كلثوم ليس كأكبر مطربة معاصرة في العالم العربي، وإنما أيضا إحدى أكبر فنانات العصر وهذا دون اعتبار للأسلوب أوالنوع، فليس ثمة مايوازي عظمة صوت أم كلثوم.. وإن عدداً كبيراً من المناضلين التقدميين يقولون اليوم إن أغاني أم كلثوم كانت "مخدر الشعب" ومع هذا فإن الدور السياسي الذي لعبته أم كلثوم في الماضي لم يكن دوراً بسيطاً.

الأمريكيون كانوا يسمونها "سلاح عبدالناصر" السري وكثيراً ماتردد أن إحدى مهمات القاذفات البريطانية في حرب ١٩٥٦، كانت تدمير الإذاعة التي تبث أغاني أم كلثوم في القاهرة لإسكاتها.

وأن اسم المطربة الكبيرة كان في مقدمة لائحة أسماء الشخصيات التي يجب توقيفها فور وقوع القاهرة في أيدي البريطانيين. وبالنسبة إلى الكثير من العرب يكمن فضل أم كلثوم السياسي في أنها عرفت كيف تجمعهم وتتخطى انقساماتهم.

وكتبت صحيفة "النوفيل أوبسرفاتور" تقول أيضا عن أم كلثوم السياسية: كان من الطبيعى أن تتجه المطربة الكبيرة نحو الناصرية. فى ضمير الشعب كان صوت أم كلثوم وخطابات عبدالناصر يلتقيان ويتجاوران.. إنه زمن الانتصارات التى يجب الاحتفال بها والجماهير التى يجب جمعها، والقضية التى يجب التغنى بها.

وأخيراً كتبت أكبر صحف فرنسا "الفيجارو" تقول : عندما قامت الثورة الناصرية بقيت أم كلثوم المؤسسة الوحيدة المحترمة. وإن كوكب الشرق كانت مصر التاريخ، أكثر بكثير من فاروق الألبانى وأن عدداً كبيراً من علماء الاجتماع اهتموا بظاهرة أم كلثوم وأرادوا أن يعرفوا لماذا أنشأ عبدالناصر إذاعة خاصة تحمل اسمها وتذيع أغانيها طيلة ٢٤ ساعة فى اليوم. إن أم كلثوم كانت تؤكد بأغانيها أن العالم العربى قادر على خلق أشياء جميلة بثرواته المنسية. لقد كانت تعطى العالم العربى الأمل.

وفى رسالة لجريدة. "هيرالد تريبيون" من القاهرة كتب مراسلها عن حياة أم كلثوم مستعرضا كافة المراحل التى مرت بها. وقال من بين ماأرسله: إن إغنية وطنية لأم كلثوم أقوى بكثير منّ ألف مقال لأهم الكتاب العرب.. وخبراء الموسيقى يقولون إن عظمة صوتها تكمن فى قوة هذا الصوت وعمقه وفى مقدرتها العجيبة على التلاعب بأوتاره.

ونختتم هذه الإطلالة عن أم كلثوم فى الصحف العالمية بما ذكرته "الديلى ميل" البريطانية لمراسلها الخاص فى القاهرة حيث جاء فيما بعث به : أنها ممتلئة القوام ذات وجه بيضاوى، وتبلغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً وهى بذلك ليست قطعاً من فتيات الغلاف، ولكن يدعونها فى الشرق الأوسط كله بسلاح "ناصر" السرى وأن اسمها أم كلثوم.

واختصاصها أن تغنى أغانى المديح للكولونيل جمال عبدالناصر، وهى تفضل ذلك لليلة واحد كل شهر فى برنامج يذاع على طول وعرض العالم العربى من راديو القاهرة.

إن الجمل الشخصية التى تخرج من بين شفاه أم كلثوم تطرب الملايين من العرب فى كل مكان يتواجد فيه الراديو. "حققنا الآمال بجهودك يا جمال". برياستك ياجمال، بيديك ياجمال ومن حين لآخر لأجل أن تنوع الروتين تغنى أم كلثوم اغنية حب عربية بصوتها المغرد القوى.

وأم كلثوم تغنى مديح ناصر على هذا المنوال منذ أن ظهر كقائد للثورة التى طردت الملك فاروق منذ ست سنوات وإن صوتها الذهبى يساوى ثروة من الدعاية لناصر.

وقالت الصحيفة أيضا عن أم كلثوم السياسية : إن أم كلثوم من أكثر السيدات أناقة فى مصر، وبديهيتها وسحرها يجعلانها مركزاً للجاذبية فى الحفلات العامة. ولكى تكتمل الأسطورة يقال عنها أيضا إنها تؤتمن على أخطر أسرار الدولة..

ومن سخرية الأمور أن ناصر يدين للأمريكيين بحظة الطيب فى امتلاكه لمثل هذه الدعاية الفعالة المؤثرة.. فمنذ ٥ أعوام عندما هدد اضطراب الغدة الدرقية بإنهاء حياة أم كلثوم كمغنية فدبر السفير الأمريكى فى القاهرة عندئذ إجراءات سفر أم كلثوم إلى واشنطن وعلاجها علاجاً إخصائيا.

وقد عادت أم كلثوم بعد أن شفيت تماماً وتنفس الملايين من معجبيها الصعداء. ولازالت أم كلثوم تشعر بالجميل إزاء الولايات المتحدة لإنقاذها لصوتها..

ويقول الكثير من الرسميين الأمريكيين إن شفاء أم كلثوم قد أنتج نية طيبة تجاه أمريكا أكثر من أى دعاية مدبرة.

(٣) الشيخ زكريا أحمد



شارك فى ثورة ١٩١٩

بتوزيع المنشورات !

إذا كانت طائفة كبيرة من أهل الفن قد انفعلت بالأحداث التاريخية الكبيرة والتى هزت مصر مع مطلع هذا القرن .. وحاولت بدورها التعبير عن هذا الانفعال بشتى الطرق.. سواء بالفن أو بالمشاركة الفعلية فى تلك الأحداث.. فإن فناناً عظيما مثل الموسيقار الكبير زكريا أحمد قد انفعل بجانب كبير من تلك الأحداث.. وشارك فيها بالأعمال البطولية التى لم يلق عليها الضوء المبهر، كما عبر عنها فى معظم أعماله الفنية.

ولم يكتف بذلك.. بل كتب عن مشاعره وأحاسيسه تجاه هذه الأحداث العظيمة كتابة أدبية وتاريخية بليغة، اقترب عن طريقها كثيراً من بوابة التاريخ فيما رواه من أحداث وماكتبه من تحليلات.

ولاشك كانت لنشأة وتربية الشيخ زكريا أحمد الدينية دخل كبير فى تكوين هذه الأحاسيس الوطنية المبكرة. بل وساهمت كثيراً فى إسراعه الدائم للمشاركة فى تلك الأحداث.. ليس بالفن فقط.. بل وبالعمل الوطنى فى شتى صوره من جانب آخر.

وكما سوف يمر علينا بعد لحظات فقد كانت ثورة ١٩١٩ هى المحرك القوى والحقيقى للعديد من فئات أهل الفن من الذين خدمهم الحظ لكى يعيشوا أيامها وأحداثها بل وتوابعها ومؤثراتها أيضا، كما ارتبط هؤلاء الفنانين فى الوقت نفسه بقضايا مصر المصيرية التى تمحورت آنذاك فى الرغبة الشعبية العارمة من أجل تحقيق وجلاء القوات البريطانية عن مصر وهو ما لم يتحقق إلا بعد فترة ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢.

والجديد فيما رواه الشيخ زكريا أحمد عن كل مشاهداته هو قدرته الفائقة على تحليل أوضاع مصر السياسية والتاريخية آنذاك ووصوله إلى

أسباب تلك المؤثرات العظيمة التى حركت كل انفعالات المصريين على اختلاف درجاتهم وثقافتهم ومداركهم وخبراتهم وتخصصاتهم أيضا.

ورغم أن الشيخ زكريا أحمد قد عاصر فى حياته العشرات من الأحداث السياسية والتاريخية المصرية والدولية أيضا.. إلا أننا لم نجد فيما تركه من آثار مثل الذى كتبه وعبر فيه عن رؤيته الخاصة كفنان فى حادث سياسي ضخم مثل ثورة ١٩١٩.

وربما انشغاله بالفن ودخوله في دائرة الشهرة كان من أحد الأسباب التي باعدت بينه وبين استكمال طريق الوطنية والكفاح، وربما أيضا يكون السبب فى ذلك إصابته بالعديد من الأمراض التى جعلته متفرغاً فقط للفن.. وفن الألحان والموسيقى فقط.

ولاشك أن الوقوف على بعض اللقطات الحيوية فى حياة هذا الملحن الوطنى العبقرى من الممكن أن تقربنا أكثر من تجربته كراوٍ للتاريخ المصرى الحديث بما فيه من أحداث تستحق الذكر وإلقاء الأضواء المبهرة عليها ولسوف نكتشف من خلال ذلك أن الشيخ زكريا أحمد كفنان كان فى طليعة أهل الفن من الذين تأثروا وأثروا فى تاريخنا الوطنى.

وتقول سطور حياة هذا الموسيقار العبقرى إنه بن أحد عربان الفيوم وهو الشيخ أحمد صقر مرزبان الموظف بالأزهر الذى كان يملك صوتا جميلا جعل إبنه الصغير يحب دنيا الفن منذ بواكير طفولته. ويزداد عشقاً لها على حد قول المؤرخ الفنى كمال سعد من خلال الصوت الرقيق لإمه التركية التى كانت تردد دائماً أمامه أحلى كلمات الغناء الشعبى التركى.

ولد الشيخ زكريا أحمد فى السابع من يناير عام ١٨٩٦ بحى الأزهر بمدينة القاهرة، وفى هذه البيئة الدينية أرسله أبوه إلى كتاب الشيخ "تكلـة" فقد كان أمله أن يحفظ ابنه القرآن الكريم ويرتله. ولكن ميول الصبى الفنية تغلبت على كل شئ.. بل وكانت سببا فى عدم استكمال دراسته فى الأزهر.

ليس هذا فقط. بل كانت أيضاً السبب فى فصله من مدرسة "خليل أغا" الأولية.. والغريب فى هذا الأمر أن كل وساطات الأقارب والأصدقاء لم تنجح فى إبعاده عن هذه الهواية وإرجاعه مرة أخرى إلى طريق الأزهر.

من ذلك على سبيل المثال أنه حين حاول أبوه الضغط عليه لمواصلة تعليمه الدينى، هرب من البيت، وذهب إلى سرادقات المتصوفين ليستمع إلى تواشيحهم وتصدمه سيارة فيجد نفسه وحوله كل أفراد أسرته.. عندئذ يرضخ أبوه أمام إصرار الشيخ زكريا على خوض طريق الفن.. فعهد به إلى الشيخ درويش الحريرى ليصنع منه منشداً دينياً.. وتلك كانت بداية الشيخ الصغير زكريا أحمد.. فى عالم الفن ومشواره الطويل.

وبعد فترة تدريب على إلقاء الموشحات الدينية ألحقه الشيخ "درويش الحريرى" بعد استكمال تدريبه ببطانة الشيخ "على محمود" وبعد أن استمر معه فترة أعطاه فرصة تلحين بعض الأغنيات الدينية والتى كان يؤديها الشيخ زكريا بصوته. ثم بعد ذلك انتقل للعمل فى بطانة الشيخ "إسماعيل سكر"

ولما بلغ الشيخ زكريا أحمد سن العشرين من عمره تمرد على العمل مع "الشيخ سكر" حيث بدأ طموحه يتخطى تلك المرحلة بعد ماتمكنت منه ملكة التلحين.

ومنذ ذلك التاريخ انطلق الشيخ زكريا أحمد فى سماء الفن كالصاروخ، وقد ارتبط فى بداية مشواره الفنى فى عالم الموسيقى بصوت سيدة الغناء العربى كوكب الشرق أم كلثوم والتى قابلها لأول مرة فى عام ١٩١٨ أثناء حضوره إحدى الحفلات الدينية فى مدينة السنبلاوين.

ويؤكد المؤرخ الفنى "كمال سعد" أيضا أنه بعد نجاح الشيخ زكريا أحمد فى تلحين الأغنية اتجه إلى المسرح الغنائى وتلحين الأوبريت. فعمل مع فرقة كبيرة مثل فرقة على الكسار وإخوان عكاشه التى كانت تقدم أعمالها المسرحية تحت رعاية الاقتصادى العظيم محمد طلعت حرب.

وكما سبق وذكرنا فإن الطبيعة الوطنية والحماسة المبكرة والانفعال الفورى وما كانت تمر به مصر آنذاك من أحداث ومشاكل وأزمات لم ينشأ من فراغ بل كانت له عدة مؤثرات بعضها ارتبط بمشوار حياة الشيخ زكريا أحمد نفسه وبعضها ارتبط بمشوار حياة والده الشيخ أحمد الذى كان أحد جنود ثورة عرابى.

لقد عاش هذا الفنان العبقرى بدايات حياته الفنية ومصر تمر بظروف سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة نتجت عن نشوب الحرب العالمية الأولى.. وقد استفاد الشيخ زكريا أحمد من ظروف البلاد آنذاك، إذ كانت الحركة الوطنية التى بعثها مصطفى كامل فى مطلع القرن العشرين قد بدأت تؤتى ثمارها، وكان انتصار الشعب فى كل المعارك التى خاضها ضد الاحتلال والفضيحة الكبرى التى لحقت بالسياسة الاستعمارية البريطانية بسبب مأساة دنشواى.

كما كانت إقالة "اللورد كرومر" الحاكم البريطانى لمصر آنذاك وطـرده شر طرده وانكشاف أمر من تولى مكانه ومـن والاه مـن السياسـيين المواليـن لبريطانيا فى الوقت نفسه.. من أهم أسباب انطلاق الشعب المصرى فى كثير من الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية.

كما كان لوفاة مصطفى كامل والثورة الوطنية التى أعقبتها وإلقاء أعبـاء الزعامـة الوطنيـة علـى أكتـاف رفيقـه محمـد فريـد، وإنشـاء نقابـات العمـال والمدارس الليليـة والمظـاهرات مـن أجـل الدسـتور وإنشـاء الجامعـة ونـادى المـدارس العليـا ورفـض مـد امتيـاز قنـاة السويس، ومحاكمـات الوطنييـن مـن الساسـة ورجـال الديـن أيضـا التـأثير الكبير علـى حيـاة زكريـا أحمـد الفنيـة وغير الفنية.

ومما عمد إليه الموسـيقار الكبير زكريـا أحمـد.. هـو تسـجيله لمشـوار حياته الفنية وغير الفنية فى مذكرات يومية كان يسجلها أولاً بأول وقـد بدأهـا منذ أول يناير فى عام ١٩١٦.

ومما كان يسجله فى تلك المذكرات على سبيل المثال قولـه : "فـى أول يناير شغل عند "درويش بك وصالح بك".. وفى ٣ يناير قابلت "سيد درويش، وكان بيشتكى لـى ، وفـى الأيـام مـن ٤ إلـى ٣١ ينـاير شـغل فـى حـوش أدم والفشن والحلمية وعند "والى بك" فى المغربلين والزقازيق والقناطر الخيريـة ودمياط وشربين والعباسية.."

***

ولما كان هدفنا الأول من وراء هـذه الإطلالـة التاريخيـة.. هـو معرفـة موقـع العديـد مـن أهل الفـن المصـرى فـوق خريطـة الأحـداث السياسـية

والتاريخية مع مطلع القرن العشرين.. فسوف نركز خلال الفقرات القادمة على رؤية الشيخ زكريا أحمد لتلك الأحداث.. وتحديد موقعه بالضبط فوق هذه الخريطة.

وفى حقيقة الأمر.. لم يترك الشيخ زكريا أحمد هذه المهمة لأحد غيره رغم انشغاله في حياته الفنية بل تعمد أن يسجل كل هذه الأحداث بكلماته برؤيته وكأنما قد فضل أن يجلس فى مقاعد المؤرخين ورواة التاريخ.. ويترك لفترة مقعد الموسيقى والألحان.

وكما مرعلينا منذ لحظات فقد كان الشيخ زكريا حريصا كل الحرص على تسجيل كل لقطات حياته أولاً بأول فى نوتة صغيرة ظل يحتفظ بها طويلاً. وقد تطرق الشيخ زكريا أحمد فيما رواه من أحداث تاريخية إلى أسلوب التحليل والتعليل، وقد سيطرت عليه آنذاك كل أو معظم أحداث ثورة ١٩١٩.

ومما ذكره الشيخ زكريا أحمد فى هذا السياق قوله : "كان طبيعيا أن يكون أهل الفن فى مصر من أسبق المواطنين إلى مكافحة الاحتلال البريطانى وإلى الثورة ضد الطغيان أيا كان ذلك.. لأن الفن فى أى زمان وأى مكان – من لوازمه الحرية الكاملة ولاحياة له إلابها. ولأن الفنان بطبيعة عمله أرهف حساً وأعمق شعوراً بمعاناته الظلم وآلام القيود، وبكل ما يمس مقدساته من المبادئ والمثل العليا.

وفى تاريخنا الحديث، صفحات لايحصى عددها، سجلت فيها مواقف ومآثر لطوائف الفنانين، تعد مثلاً فى قوة الوطنية وصدق التضحية والعمل بحماسة لإعلان كلمة الحق.. وإنقاذ الشعب من سالبى حريته ومستقبله.

كان للفن "مثلا" دور كبير فى ثورة عرابى ضد استبداد الحكام الدخلاء وأكلهم حقوق الشعب بالباطل ثم ضد التدخل الأجنبى المسلح الذى انتهى بالاحتلال البريطانى البغيض.

***

وفيما ذكره الشيخ زكريا أحمد عن ثورة عرابى وتأثيرها على مستقبل مصر بعد ذلك.. كان متأثراً بقوة بالأحوال التى وصفها له والده الشيخ أحمد الذى كان من بين جنود مصر المشاركين فى هذه الثورة.

ويقترب بنا الشيخ زكريا أكثر – وكأنه مؤرخ محترف – من وقائع ثورة عرابى وتأثير فشلها على كل قطاعات شعب مصر. فيقول : "ولقد تجلى ذلك فى الصور والرسوم الفنية التى ملأت بيوت أفراد الشعب وملأت عيونهم وقلوبهم إعجاباً بقائد الثورة وإيماناً ببطولة أفراد الشعب وملأت عيونهم وقلوبهم إعجاباً بقائد الثورة إيماناً ببطولته وزعامته، وتجلى فى الأناشيد والقصائد والمواويل والأزجال الحماسية، التى وضعها شعراء الثورة ورددها المنشدون والمغنون فى مختلف أنحاء البلاد، وسرعان ماردها معهم عشرات الآلاف من المواطنين المتحمسين الذين تطوعوا للجهاد تحت راية الثورة وبايعوا قائدهم على الاستماتة فى الدفاع"

ولم يقف أثر الفن على حد قول الشيخ زكريا أحمد عند هذا الحد فقط، – حد استثارة الهمم والعزائم للتطوع فى جيش الثورة والتبرع له – بل جاوزه إلى ميادين المعارك العديدة بين جند الثورة وجند الاحتلال.

وكان الشعب فى خطوط القتال وفيما وراءها يغنى أناشيد الثورة وأهازيجها فتزداد روحه المعنوية قوة على قوة وتشتد ثقته بنفسه كما يشتد

سخطه على الاحتلال وأعوانه.. فالفلاحون فى حقولهم والعمال فى مصانعهم والطلبة فى مدارسهم وغيرهم وغيرهم من أفراد الشعب يتغنون بلحنها الشجى السهل كالزجل الذى يقول فيه :

بدال ماأقلد أوربى فى أكلى وشوربى

كانت بلادنا لنا جنة ولهـا شنة ورنة

صبحت لأهليها نيران

وكان جنود الثورة ينزلون إلى ميادين القتال وقد تزودوا إلى جانب أسلحتهم البسيطة بذخيرة قوية لاتنفد مما استمعوا له من ترتيل آيات القرآن المجيد التى تحض على الجهاد وتبشر المجاهدين بأعظم الدرجات عند الله.

وفى كل مكان من أنحاء البلاد كانت مواكب الشعب الثائر لاينقطع سيرها ولاترديها.. وذلك تمجيداً لأبطال الثورة والدعاء لهم بالنصر على الأعداء كقولهم

ياعرابى الله ينصرك

بجيش المؤمنين

ياعرابى بكره عسكرك

يكيدوا المجرمين

وحينما انتهت ثورة عرابى تلك النهاية الأليمة بسبب الغدر والخيانة وبعد أن أمضى المحتلون وأعوانهم فى التنكيل بقادة الثورة وجنودها بقى كثير من الفنانين يؤدون دورهم الكبير فى تضميد جروح الشعب وتعبئة قواه من جديد ضد أعدائه.. فمن مواويل تغنى على الأرغول تتحدث بقصة الثورة وبطولة قادتها.. ومن قصائد تنشد فى حلقات الأذكار وغيرها لتذكير الناس

بحقوقهم الضائعة وإعدادهم للثأر والانتقام. ومن ذلك قصائد حماسية للبارودى والنديم وأحمد عبدالغني وأحمد المليجى ويعقوب صنوع وغيرهم، وللأخير قصيدة سماها "القول الوجيز فى دخول الإنجليز" ونشرها فى مجلة: أبونضاره" ولحنها الشعب وغناها وفيها يقول :

ياروى الدهر حدث عن أبى العجب
واندب زمان التصافى يا أخا العرب
ما بين جهل وحقد ضاع سؤددنا
واستأصلتنا يد الإذدراء والكرب
هذا العزيز تخلى عن سيادته
للإنجليز ولم يقبض سوى الكذب

* * *

ويخرج بنا الموسيقار المؤرخ الشيخ زكريا أحمد للحديث أيضا عن زعماء مصر الذين مهدوا لثورة ١٩١٩. وكان على رأس الزعماء الذين تحدث عنهم كثيراً.. مصطفى كامل فقال :

وحينما قام الزعيم الشاب مصطفى كامل مطالباً بجلاء المحتلين منددأ بأعمالهم الوحشية من دنشواى.. كان الفنانون والأدباء والشعراء والزجالون والملحنون والممثلون فى مقدمة من هبوا لتأييد دعوته وترسم خطاه فى مكافحة الاحتلال وأذنابه وتأليب الشعب ضدهم، ثم كان انتصاره على "كرومر" عميد الاحتلال وكان إخراجه من مصر فرصة طيبة لمضاعفة كفاح الفنانين فى سبيل الحرية والاستقلال.

فلما اختار الله مصطفى كامل إلى جواره.. كان موته بعثا للأمة كلها من مرقدها وفى موت الزعيم وسيرة حياته أُنشدت قصائد ومواويل وأزجال

وقصص منظومة ، وتبارى الفنانون فى تلحينها وإنشادها وحفظها وترديدها بحماسة وإعجاب فى مختلف المناسبات.

وأحد المواويل التى حفظها الشعب من ذلك الحين يعزو – فى صراحة مؤكدة – موت مصطفى كامل إلى تأثره بالسم الذى وضعه المحتلون ليتخلصوا من إلحاحه فى مطالبتهم بالجلاء. ومن إظهار العالم كله على فضائحهم ومخازيهم الاستعمارية.. ولاتزال لهذه الإشاعات السياسية المقصودة مكانة الحقيقة الراسخة عند كثير من أفراد الشعب لكثرة ماسمعوه وتأثروا به فى استماعهم لذلك الموال وفى ترديدهم إياه".

ولو أعدنا قراءة ماسبق أن قاله الشيخ زكريا أحمد عن أحداث مصر التاريخية منذ ثورة عرابى وحتى مطلع الحرب العالمية الأولى. سوف نجد بالفعل روح وعقل وضمير المؤرخ المحايد الذى لم ينفعل بهذه الأحداث رغم خطورتها وآثارها القوية على نفس كل فرد من أفراد الشعب المصرى. وقد حاول كثيراً أن يدخل بنا فى دائرة اهتمامه الخاص من أجل أن يربط بين تلك الأحداث وموقف أهل الفن منها.

ونراه بعد ذلك يقترب بنا كثيراً من أحداث تاريخية كانت ولاتزال على جانب كبير من الأهمية ونقصد بذلك فترة مابعد الحرب العالمية الأولى. وانطلاق الشرارة الكبرى فى سماء ثورة ١٩١٩.

ومما قاله الشيخ زكريا أحمد:

وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى انطلق الشعب فى ثورة عارمة مناديا بالإستقلال التام أو الموت الزؤام وتوالت الاضطرابات والمظاهرات والاحتجاجات وعمد المحتلون إلى وسائل البطش والقمع والإرهاب والخداع محاولين إطفاء نيران الثورة التى اندلعت ضدهم فى كل مكان، فأطلقوا نيران

المدافع على المتظاهرين، وحرقوا القرى بأكملها وكثرت الاعتقالات والمحاكمات الصورية.

وأدت المحاولات الغادرة والرديئة للتفريق بين عنصرى الأمة : المسلمين والأقباط ولكن الأمة المؤمنة الثائرة مضت فى ثورتها وصممت على بلوغ أهدافها وتحقيق مطالبها.

ومما قاله المؤرخ الشيخ زكريا أحمد أيضا : وكان دور الفنانين فى ذلك الكفاح عظيماً حقاً إذ أنهم لم يكتفوا بالمشاركة فى المظاهرات والاجتماعات المتتالية فى المساجد والكنائس، بل أخذوا على عاتقهم مع ذلك مهمة أجل خطراً وأعمق أثراً هى مهمة إذكاء تلك الروح الوطنية الثائرة وتزويدها بوقود من الفن الموجه المتغلغل فى النفوس.

ففى المسارح القليلة التى سمح الاحتلال باستمرارها فى العمل كانت شخصية المحتل البغيض تبدو فى صور فنية مختلفة تثير حماسة الشعب ضده وضد كل ظلم وإستعباد وإستغلال.

وكانت الألحان الوطنية، والقوية التى وضعها الموسيقار المصرى العبقرى الشيخ سيد درويش ماتكاد تتردد على المسرح حتى يحفظها جمهور المتفرجين لسلاستها وبساطتها وقوة تعبيرها.

كما أحب أن أسجل هنا – والكلام لايزال من مفكرة ومذكرات الشيخ زكريا أحمد – أن كثيراً فى ذلك الحين، كانوا أعضاء فى الجمعيات السرية التى تكافح المحتلين. ومن هؤلاء الأستاذ بديع خيرى.. وكان يقوم بطبع المنشورات الوطنية التى توزع على الشعب فى مطبعة سرية كان مقرها فى بلدة "محلة حسن" بضيعة أحد الأمراء السابقين.. ذراً للرماد فى عيون

الجواسيس. وكان سعد زغلول زعيم الثورة يعرف لبديع خيرى فضله فى تأييدها.. وقد زاره مرة فى المسرح ومعه المرحوم محمود صدقى زوج شقيقة قرينته المرحومة أم المصريين والمرحوم سعيد عنانى.. وبعد أن شاهد الرواية التى كانت تمثل فى تلك الليلة أثنى عليه كثيراً وأفاض فى تقدير وطنيته.

ومما ألقى عليه الضوء.. الكاتب الصحفى الراحل "صبرى أبو المجد" قوله إن الشيخ زكريا أحمد نفسه كان أحد جنود ثورة ١٩١٩، وقد صفى كل أعماله الفنية وأصبح متفرغاً تماماً للعمل فى الثورة منذ ٩مارس عام ١٩١٩.

ففى المرات التى كان يسافر فيها إلى الأقاليم لم يكن الغرض فى حقيقة الأمر من السفر قراءة القرآن الكريم أو قراءة قصة المولد النبوى. أو الغناء.. بقدر ما كان يقوم بحمل بعض الرسائل من ثوار القاهرة إلى ثوار الأقاليم والعكس.

وكانت تلك الرسائل يحملها فى طيات شال عمامته، وحتى عندما كان يقرأ القرآن فى القاهرة أو فى الأقاليم كان يختار الآيات التى تحض الناس على الاستبسال فى الدفاع عن مصر.

ليس هذا فقط بل لحن زكريا أحمد فى هذه الفترة ألحانا سرت فى الشعب مسرى النار فى الهشيم، ومنها ماغناه المطرب عبداللطيف البنا "قال ياسعد من غيرك زعيم". ومنها ماغناه زكى مراد كنشيد "مصر أولادها رجال" كما كان لزكريا أحمد نشيد اسمه "نشيد "سعد زغلول" وكان يلقيه دائما فى بداية العمل بمسرح "الماجستيك" حيث كان الجمهور والمنشدون والمطربون يرددونه كالسلام الوطنى الآن وهم وقوف.

(٤) روزاليوسف



الزعيم سعد زغلول
يعلم روز...فن التمثيل

الفن والصحافة والسياسة مشاعل مضيئة حملتها وحدها وسط ظلام ليل طويل.. سيدة وفدت إلى مصر فى دور الصبية.. وتمكنت باقتدار وفق إمكانيتها وطموحاتها من أن تصل إلى أبعد مما كانت تحلم به وقد برهنت بذلك سيدة مثل "فاطمة اليوسف" على أنها امرأة قوية.. لم تركن للمشاكل أوالمصاعب التى واجهتها سواء فى مشوارها الفنى أو الصحفى. أوالسياسى.

هذه السيدة المتألقة فوق مسرح الفن ومسرح الحياة ظلت لفترة امتدت لأكثر من ٥٠ عاماً شاهد عيان.. بل ومشارك فعال.. فى أحداث تاريخ مصر منذ ثورة ١٩١٩ وحتى بعد فترة مابعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.. وبذلك كانت إحدى الفنانات المشهورات اللاتى وقفن فى طابور طويل مع أهل الفن من الذين سطروا بدموعهم وبعرقهم صفحات مضيئة من تاريخ مصر الحديث.

ولو سمحنا لأنفسنا بأن نعدد هذه المساهمات الكبيرة والشهيرة لما وسعتنا هذه الأوراق وإنما سوف نحاول أن نقتطف من مشوار حياة روزاليوسف العديد من الثمار أينعت فوق أشجار تلك الأحداث. وإن كانت هى نفسها قد حرصت على تسجيل معظم أحداث حياتها. فى أوراقها الخاصة خشية التزوير.

و"فاطمة اليوسف" أو روزاليوسف:.. هى فى الأصل فنانة نزحت من بلدتها طرابلس اللبنانية التى ولدت بها فى عام ١٨٩٧.. وقد جاءت إلى مصر فى فترة صباها حيث عاشت أشد ظروف الحياة قسوة ومرارة حتى استطاعت أن تقتحم عالم الفن حين تمكنت وبقوة العزيمة والإصرار من العمل فنانة مسرحية فى فترة الحرب العالمية الأولى.

ومما ذكرته روزاليوسف نفسها عن تلك البداية قولها على لسان راوى مذكراتها أنها كانت يتيمة الأب والأم ، وكانت صبية صغيرة تذهب أحيانا إلى مسرح بالقرب من محلات "صيدناوى" اسمه دار التمثيل العربى. تتفرج على المسرحيات وعلى أبطال هذه الحياة الغريبة التى تجرى أمام عينها على المسرح، وكانت فرقة "عبداللـه عكاشة" تمثل على المسرح بعد أن اعتزل الشيخ سلامة حجازى التمثيل.

وكانت كثيراً تترك هذه الصبية مكانها فى الصالة أثناء التمثيل لكى تتسلل إلى الكواليس تقف عند الحائط لتحدق فى الممثلين والممثلات وهم يروحون ويجيئون.. تحاول أن تتعلم طريقتهم فى النطق وتنغيم الكلمات، وتتمنى لو أصبحت مثلهم تتحدث بالأشعار الرقيقة وتهتف بالكلمات الحماسية"

وبالفعل هداها تفكيرها الذى وقف وراءه كم كبير من العزيمة والاصرار على أن تكون مثل هؤلاء.. فتعلمت فن التمثيل.. حتى أصبحت إحدى الممثلات المصريات المشهورات فى عالم المسرح مع بداية عام ١٩١٨.

وكانت بذلك أولى محطات حياتها الفنية التى لم تركن عندها أو تستكين بل واصلت مشوار هذه الحياة حتى آخر مداها.

وفاطمة اليوسف.. رغم أنها خلال هذه الفترة المبكرة من حياتها الفنية كانت بعيدة كل البعد عن التفكير فى العمل الصحفى أو السياسى إلا أن مشاعرها المتدفقة كسيدة عاشت على أرض مصر بعدما وفدت إليها، قد نضجت نضوجاً عظيماً فى ظل ماعاصرته من أحداث حركت بداخلها تلك المشاعر، بل ودفعتها دفعاً من أجل المشاركة والتعبير عن تلك الأحداث السياسية التى هزت حياة مصر كلها آنذاك.

ففى أثنـاء ثـورة ١٩١٩.. بعد إلقـاء القبض لأول مـرة علـى زعيمهـا العظيـم سعد زغلـول.. خرجت المظـاهرات لتعبر عـن غضـب الشـارع المصرى إزاء ماقامت به قوات الاحتلال البريطانى ضد زعيم الثورة. وكـان للفن دوره فى هذه الفترة التـى كـانت روز اليوسـف آنـذاك أحد مشـاهيرهاء وإسألوا مسرحيات "غادة الكامليا".. وغيرها.

هذه الفنانة لم ترض عن المشاركة فى هـذه المظـاهرات أى بديـل. فلـم تركن للخوف أو الخشية. بل قررت النزول إلـى الشـارع للمشـاركة فـى تلـك المظاهرات، الأمر الذى عرضها للموت.

ففى تلك الحقبة مـن تـاريخ مصـر تتابعت الأحداث حتـى نشـبت هـذه الثورة، وعلى إثر اعتقال السلطات الانجليزية لسعد زغلول ونفيه إلى مالطـة وقعت القارعة التى هزت جموع الشعب المصـرى.. فأغلقت الحوانيت أبوابها وأضربت المواصلات من الترام إلى الحمير التى كانت آنـذاك وسيلة شائعة من وسائل الانتقال.

وانطلقت المظـاهرات فـى كـل مكـان، تهتـف بحيـاة سـعد وتنـادى بالاستقلال.. وبدت البيوت كأن أهلها هجروها، كلهـا صامتـة، مغلقة، تحمـل على أبوابها وجدرانها نقوشا تمثل العلم المصـرى، وشـعارات تصـرخ بحياة الاستقلال وطرد الإنجليز من حوارى القاهرة، وأصبـح الصـوت المعتـاد فـى الشوارع هو صوت طلقات النيران.

وتؤكد روز اليوسف أن المسارح ظلت تمارس عملها فى هذه العاصفة حيث أصـر الممثلـون علـى الوقـوف علـى خشـبة المسرح يؤدون أدوارهـم وأصوات الرصاص والقنابل فى الخارج تغطى عليهم، والصالة لـم يكـن بهـا إلا متفرج أو اثنان.

وتحكى فاطمة اليوسف : "وقد ينفتح الباب فجأة ويندفع إلى الداخل شباب من الثوار يسرعون إلى الاختفاء من مطاردة الانجليز فى حجرات الممثلين والممثلات أو خلف ستائر المسرح.. ويحتفظ الممثلون بهدوء أعصابهم لمقابلة هؤلاء الجنود وإقناعهم أن أحداً لم يدخل.

وكما سبق وذكرنا فإن صوت الفن لم يتوقف عند حد المشاهدة.. بل ظل يدوى بقوة فى هذه المظاهرات، ويعلن رأيه فى القبض على سعد زغلول ونفيه لمالطه. وقد قرر هؤلاء الفنانون أن يقوموا بالمظاهرات مشاركة منهم للشعب وكل طوائفه.. وكانت كل أنواع المظاهرات آنذاك ممنوعة ولاتقابل إلا بإطلاق النار.

وتقول فاطمة اليوسف واصفة إحدى المظاهرات التى شاركت فيها : "فى الساعة المحددة خرجت كل فرقة من المسرح الذى تعمل به ، وقد حملت علماً كبيرا والتقت الفرق كلها فى ميدان الأوبرا أمام فندق الكونتننتال. وكان فى السائرين جورج أبيض وعبدالرحمن رشدى وعزيز عيد ونجيب الريحانى وزكى طليمات ومحمد عبدالقدوس ومحمد تيمور.. وكل من كان يعمل فى المسارح ممثلاً أوعاملاً، وكان بعضهم يلبس ملابس عربية وبعضهم يلبس ملابس فرعونية وغيرها من الثياب القومية.

وتقدمت المظاهرة عربة حنطور تركبها الممثلتان الوحيدتان فى المظاهرة "روزاليوسف "ومارى ابراهيم" ومعهما فى العربة عبدالحليم الغمراوى المحرر بالأهرام، وكان مديراً لمسرح برنتانيا.

وتجمع حول المظاهرة خلق كثير، وسارت تقطع ميدان الأوبرا ومن حولها تسعى جنازات الشهداء وصيحات الجماهير، وتحت تمثال ابراهيم باشا

مباشرة رأت روزاليوسف جنديين انجليزيين صريعين وقد نزفت ملهما دماء غزيرة.

واتجهت المظاهرة إلى شارع عدلى، ولم تكد تمضى فيه حتى تصدى لها جنديان انجليزيان آخران، ومضت المظاهرة.. ورفع أحد الجنديين بندقيته وصوبها إلى روزاليوسف حاملة العلم، وتجمدت الفنانة الناشئة من الرعب وشعرت بسخونة تغمر جسدها، وأحست كأن رصاصة قد انطلقت واخترقت ظهرها فعلاً فتشبثت بالعلم كأنها تستند إليه.. ولم يكن قد أصابها فى الواقع شئ من هذا الذى صوره لها الفزع.

وقد تبينت فيما بعد أن الجندى الانجليزى لم يكد يرفع بندقيته حتى عاجلته رصاصة من أحد الثوار المصريين، وكان مختبئا فى شارع جانبى صغير متفرع من شارع عدلى.

وانتهت هذه المظاهرة على خير فعاد الفنانون إلى مسرح برنتانيا مرة أخرى، وقد انتهت هذه الثورة بأول انتصار سجله شعب مصر فى العصر الحديث بإطلاق سراح سعد زغلول وصحبه.

***

وتلك كانت البداية الساخنة لدخول روزاليوسف حياة مصر السياسية ولم تكن تفهم آنذاك معنى تلك الأحداث ولابقية تفاصيلها.. المهم أنها كانت تعرف فقط أن البلد فيه إنجليز يغتصبونه وأن سعد زغلول رجل عظيم.. قام ليحرر هذا البلد.. ومنذ هذه اللحظة أصبحت الممثلة روز تعرف سعد زغلول، وقد كانت تسير على قدميها من ميدان باب الحديد إلى مصر الجديدة لتستمع الى مايقوله الزعيم.. والغريب فيما تحكيه روزاليوسف نفسها أن سعد زغلول كان من أحد أسباب تعلقها بالفن. فقد كان صاحب أجمل صوت بين أصوات الخطباء.

وحتى من بعد أن اعتزلت فاطمة اليوسف الفن وبعد دخولها عالم الصحافة ارتبطت كذلك بأحداث مصر التاريخية. ففي عام ١٩٣٤ وبعد مضى تسع سنوات من اعتزالها الفن المسرحى وقع حريق كبير التهم إحدى قرى محافظة الغربية.. وكان هذا الحريق كارثة أليمة أصابت الشعب المصرى كله بالحزن، من أجل ذلك تسابق الناس للتبرع لإعادة بناء القرية المنكوبة ودعا الزعيم مصطفى النحاس الذى كان آنذاك فى المعارضة كل أنصاره إلى التبرع والمساهمة..

وكانت روزاليوسف فى هذه الفترة أحد أنصار حزب الوفد ومصطفى النحاس شخصيا. فقررت أن تعيد تمثيل مسرحية "غادة الكاميليا" ليلتين متواليتين يخصص دخلهما لمساعدة أهالى القرية المنكوبة.. كما تطوع أبطال المسرحية القدامى للتمثيل فى هاتين الليلتين. وأقبل الناس على شراء تذاكرها المرتفعة الثمن إقبالاً ليس له نظير وحضر هذه الحفلات كل من مصطفى النحاس ومكرم عبيد والنقراشى وغيرهم من زعماء الوفد. خاصة فى الحفلة الأولى.

ولقد إمتد ولاء روزاليوسف إلى حزب الوفد. حتى من بعد أن تركت الفن واتجهت إلى عالم الصحافة حتى أن مجلتها الفنية التى تحولت إلى مجلة سياسية ظلت تُعرف باسم صحيفة الوفد.. وقد أطلقت جريدة السياسة التى كانت تنطق بلسان "حزب الأحرار" الدستورية وتناصب الوفد العداء على حزب الوفد.. "حزب روزاليوسف.

وقد أقنعت بقوة شخصيتها صديقها الكاتب الصحفى الراحل محمد التابعى بأن يكتب فى السياسية بدلاً من الفن حتى انتهى به المطاف إلى دخول السجن بتهمة العيب فى الذات الملكية.

ويحضرنا في هذا السياق إلقاء بعض الأضواء المبهرة على المواقف السياسية الساخنة التى وقفتها روزاليوسف الصحفية إلى جانب حزب الوفد الذى انشقت عليه فى أخريات أيامها.

ففى عام ١٩٢٧ هاجمت صحيفة روزاليوسف السياسية. كل الصحف المعادية للوفد التى بدأت ترشح المرحوم فتح الله بركات لرئاسة الوفد خلفاً لسعد زغلول بدلا من مصطفى النحاس. وكانت صحف حزب الاتحاد تقصد بهذه الترشيحات إيقاع الفرقة بين أعضاء الوفد.

وفى العدد رقم ١٣٤، اتخذت المجلة خطة الدفاع عن الدستور والهجوم العنيف على الوزارة.. حيث تبنت حملة على الملك فى إقالة الوزارات، وصدر العدد وفيه صورة كاريكاتورية تمثل "محمد محمود" يدوس على الدستور وهو صاعد إلى مقعد الوزارة.

وقد تعرضت روزاليوسف الفنانة والصحفية ومجلتها أيضا إلى للعديد من المضايقات إزاء هذا الموقف. وتحت وطأة هذا الاضطهاد العنيف والمصادرات المتتالية حملت روزاليوسف وسام الاعتراف الشعبى بجهادها بدليل أن مصطفى النحاس خطب ذات يوم فى حفل كبير فهاجم الحكم الاستبدادى، واستشهد على ذلك بالإضطهاد الذى يصب على رأس مجلة روزاليوسف.. وقد نقلت جريدة "التيمس" البريطانية فى لندن هذه الكلمة.

ومن الأحداث التى عايشتها روزاليوسف أيضا، عندما قطع النحاس باشا زيارته إلى لندن فى عام ١٩٣٠. وكان قد ذهب إلى هناك لمفاوضة الإنجليز بشأن مسألة السودان. وقال كلمته المشهورة "تقطع يدى ولايقطع السودان" ثم الأزمة السياسية التى نشأت بسبب قانون محاكمة الوزراء حيث قاوم الملك والانجليز صدور مثل هذا القانون.

وقد وضع مصطفى النحاس حداً لهذه الأزمة فاستقال.. ثم شكل الوزارة الجديدة اسماعيل صدقي، وهي الوزارة التي قدر لها أن تلغي دستور ١٩٢٣، وإصدارها لقانون جديد أسموه دستور ١٩٣٠ وكان كل جديد فيه زيادته لسلطات الملك على حساب سلطات نواب الشعب. كما جعل الانتخاب يتم على درجتين.

كما لجأ صدقي باشا في الوقت نفسه إلى فرض ضرائب جديدة ليدعم بها الميزانية وتقول روزاليوسف في أوراقها الخاصة : "والغريب أن تكون هذه الوزارة التي ظفرت بأكبر قسط من سخط الناس، أطول الوزارات عمراً في تاريخ مصر البرلماني كله. وهذا يدل دلالة قوية على القوى التي كانت تحرك السياسة في مصر.

ومما يذكره التاريخ وشاهدته وعاصرت أحداثه روزاليوسف أيضا شق كورنيش الاسكندرية باعتباره العمل الإيجابي الوحيد الذي نفذه اسماعيل صدقي طوال توليه الحكومة على الرغم مما أثاره خصوم صدقي من الذين قالوا إن السبب في ذلك يرجع إلى رغبة صدقي باشا في تزيين الطريق الذي كان يسلكه وهو في طريقه إلى معشوقته المقيمة على بحر الإسكندرية.

ومما يقال في هذا السياق على حد رواية روزاليوسف نفسها أنه كان من بين العقبات التي صادفت صدقي باشا في شق كورنيش الإسكندرية كانت ثكنات مصطفى باشا التي كان يحتلها الانجليز، والتي كانت بين الشاطئ والثكنات. وقالوا في تبرير ذلك إنه لايصح أن تعبر العائلات الانجليزية الشارع لكي تصل إلى البحر.

وكان مدير البلدية رجلاً من رجال صدقي، الأستاذ "أحمد صديق، فأقام مأدبة دعا إليها الجنرال "روبرتسون، وكان من الضباط المسئولين في ثكنات

مصطفى باشا، وأقنعه بأنه يمكن حفر نفق تحت الكورنيش يستعمله الإنجليز للوصول الى الشاطئ دون أن يعبروا الشارع، فوافق الانجليز على الاقتراح.

ومما قالته السيدة روزاليوسف عن انطباعاتها الشخصية بخصوص صدقى باشا : "لم أرصده فى طوال المدة التى قضاها فى الحكم، ولكننى تعرفت عليه بعد ذلك بسنوات، وعرفت فيه حينئذ رجلاً نادراً فى صفاته الشخصية بغير شك، ذكيا، مجاملاً، دائم الابتسام، تصدر عنه الآراء الصائبة فى سهولة ويسر دون أن يتعب فى سبيل العثور عليها. وكانت آخر مره رأيته فيها حين ألف وزارتة الأخيرة فى عام ١٩٤٦.

وكان من المفروض أن تعيش وزارة صدقى عشر سنوات على الأقل أو هكذا رسم الانجليز والملك فؤاد خطتهم، وكان أصدقاء صدقى لايكفون عن ترديد هذا الذى استقر عليه العزم. على أنه لم تمض ثلاث سنوات على ميلاد دستور ١٩٣٠ حتى أخذ ينتشر إحساس عام بأن هذه الحالة الشاذة لايمكن أن تدوم، وأن هذا النظام الذى إقيم على أسنة الرماح لايستطيع أحد أن يجلس عليه طويلا.

وبدأت الخلافات والعقبات تتراكم فى الأفق وبدأ الملك فؤاد يتخلى عن صدقى بعدما أدى مهمته.

ومما ترويه روز اليوسف عن الأحداث التى عاصرتها وهى صحفية أن الملك فؤاد ذهب إلى الاحتفال الذى أقيم لاستقبال أول طيارين مصريين يعودان من انجلترا وكان يجلس بجوار الملك "السير لورين" المندوب السامى الانجليزى.. وجلس السير "برس لورين" فى مكانه، ثم وضع ساقاً على ساق، بحيث أصبح نعل حذائه يواجه الملك تقريبا. والتقطت الصحف الصورة

ونشرتها وشنت روزاليوسف حملة عنيفة على هذا التصرف العجيب الذى لم يكشف نوع العلاقة بين الملك والإنجليز.

وإذا كانت السيدة فاطمة اليوسف قد دارت فى فلك حزب الوفد ورجاله بدءاً من الزعيم سعد زغلول ثم خليفته مصطفى النحاس فإنها وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على علاقتها الوطيدة بهذا الحزب القوى قد اختلفت مع قيادة الوفد.. الأمر الذى انتهى بها إلى السجن على يد هذه القيادات.

وكان أول خلاف وقع بين روزاليوسف الصحفية وبين حزب الوفد بعد سقوط وزارة صدقى باشا خاصة عندما تحولت سياسة هذا الحزب الى مهادنة المندوب السامى البريطانى الجديد فى الوقت الذى أعلن فيه الوفد عداءه الشديد للقصر ومقاطعته الملك فؤاد.

وتقول روزاليوسف عن هذا الخلاف فى مذكراتها : "وحدث يوما أن نشرت خطاباً مفتوحاً إلى الملك فؤاد بالمطالبة بإعادة الدستور وإنهاء الحالة الشاذة القائمة واستدعانى مكرم عبيد ودارت بيننا مناقشات طويلة حول نشر هذا الخطاب.. فقد ظن الناس على حد قول مكرم عبيد أن حزب الوفد يريد بذلك مصالحة الملك وهذا غير صحيح، وحاولت بعد ذلك أن أقابل النحاس لأشرح له وجهة نظرى فى الموقف السياسى ولكننى لم أستطع إذ كان مكرم عبيد هو الذى يتحكم فى مقابلات النحاس.

* * *

ومن المواقف الطريفة التى عاصرتها روزاليوسف.. وكان عباس العقاد طرفا أساسيا فيها.. أنها حين قررت إصدار جريدة يومية كبيرة فكرت فى أن تضم الأستاذ العقاد إلى أسرة الجريدة وذهب إليه رسول ليعرض عليه ذلك وسأله العقاد "الجرنال حيكون اسمه إيه"؟

- "روزاليوسف اليومية"

- "لا أنا لا أعمل فى جرنال يحمل اسم واحدة ست".

ولكن الرسول لم ييأس من هذا الموقف فمضى يفاوضه، وعدل الأستاذ العقاد عن موقفه نظير بعض الشروط المالية وهى أن يكون مرتبه فى الشهر ٨٠ جنيها فقط وأن يأخذ مرتب ٤ أشهر مقدماً تخصم من مرتبه بالتقسيط ٢٠ جنيها كل شهر وأن تكون سياسة الجريدة وفدية.

وتقول "روزاليوسف" : لقد وافقت على هذه الشروط كلها وكانت شروطى أن يكتب مقالاً افتتاحياً كل يوم وصفحة أدبية كل أسبوع.

ثم عاد الخلاف يتأزم بين روزاليوسف وبين حزب الوفد حين نشرت صحيفتها مقالات تهاجم وزارة "توفيق نسيم" باشا فاستدعاها مصطفى النحاس هذه المرة منتقداً ما نشرته صحيفتها. وحين طلبت مناقشته.. صدها بقوله : "لا.. ياستى أنا ما أحبش تناقشينى فى السياسة" ثم بلغت ذروة هذا الخلاف حين رفض النحاس باشا أن يرسل كلمة بمناسبة صدور العدد الأول من جريدتها اليومية رغم أن كاتب الجريدة الأول هو كاتب الوفد الأول عباس العقاد.

وفى محاولة أخيرة من روزاليوسف لمد حبل الود والوفاق مع حزب الوفد أرسلت خطابات إلى مصطفى النحاس.. فما كان من مكرم عبيد إلا أن بعث لها خطابا باسم الزعيم جاء فيه :

حضرة المحترمة الفاضلة **السيدة / روزاليوسف**

صاحبة جريدتى روزاليوسف اليومية والأسبوعية

تحية طيبة واحتراما وبعد،،،

فقد تسلمت خطابك المؤرخ فى ٣٠ يوليو عام ١٩٣٥ وبعرضه على دولة الرئيس الجليل طلب إلى أن أعرفك أنه قد أبلغ مندوبك كلمته الأخيرة

فى الموضوع وإنك تعلمين أن الوفد لايحجر على إنسان ما أو صحيفة ما ولكن إذا رأت إحدى الصحف المنتمية إلى الوفد أن تنتهج خطة تغاير خطة الوفد، فعليها أن تتحمل نتائج ما تنتهج.. وتفضلى بقبول تحياتى واحترامى.

سكرتير الوفد المصرى

مكرم عبيد

سان استيفانو

فى ٢ أغسطس عام ١٩٣٥

وحاولت السيدة صفية زغلول أم المصريين أن تتدخل فى رأب الصدع بين الوفد وبين روزاليوسف. ولكن محاولاتها لم تلق النجاح المطلوب.. وجاءت اللحظة التى قرر مصطفى النحاس فصل روزاليوسف من حزب الوفد وإستغل فى ذلك المقال الذى كتبه الدكتور محمود عزمى بعنوان "وليم الكذاب" وقد اعتبر مكرم عبيد أن هذا المقال هو المقصود به.

وصدر قرار حزب الوفد فى ٢٨ سبتمبر من عام ١٩٣٥ بعد الجلسة التى عقدها فى بيت الأمة برياسة مصطفى النحاس. حيث أعلن بيان صحفى أن جريدة روزاليوسف لم تعد تمثل الوفد فى شىء ولاصلة له بها.

ومن أطرف المواقف التى مرت بها السيدة فاطمة اليوسف بعد قرار فصلها من حزب الوفد.. تلك المظاهرات التى احتشدت فى محطة مصر لتوديع مصطفى النحاس إلى الإسكندرية.. فلما تحرك القطار خرج المتظاهرون فى مظاهرة ضخمة يقودها "حسن يس" وقد سارت فى شوارع القاهرة تهتف بحياة النحاس وبسقوط "روزاليوسف"

ولم يتوقف أمر الهتاف بسقوط روزاليوسف على القاهرة فقط بل امتدت تلك الهتافات إلى كل مدن الوجه البحرى.."حينما كانت تذهب إليها روزاليوسف لتفقد سير توزيع جريدتها هناك".

وهى تقول عن ذلك : " وشقت المظاهرة سيارة مقفلة من سيارات البوليس هبط منها بعض رجال البوليس وحملونى حملا إلى داخل السيارة دون مناقشة أو استفسار، وتحركت بى السيارة دون أن أعرف وجهتها.. وعند أحد أطراف المدينة البعيدة وقفت بى سيارة البوليس. ونزلت، وأركبونى سيارة تاكسى صدر إليها الأمر بأن تذهب بى إلى الإسكندرية بعيداً من هذه المظاهرات"

***

وقد ظل حزب الوفد يحارب روزاليوسف بضراوة حتى قضى عليها صحفياً حين نجح فى إقناع الحكومة بسحب رخصة إصدارها كصحفية يومية بحجة أنها لاتصدر بإنتظام. وياليت الصدام قد توقف عند حد سحب رخصة إصدار الصحيفة بل امتد لمعاقبة روزاليوسف الإنسانة نفسها فبعد أن ألغت وزارة الوفد رخصة "روزاليوسف اليومية" تحولت لمهاجمة روزاليوسف الأسبوعية وقد توعدت بإلحاق الضرر بروزاليوسف صاحبة الجريدة.

وجاء هذا التوعد فى صورة حادث غريب بدأ بمشادة مع أحد وكلاء النيابة وانتهى بها إلى داخل جدران السجن عندما قال لها رئيس النيابة الذى يحقق فى هذا الحادث :

– ياست فاطمة .. والله أنا متأسف اللى هاحبسك!!

(٥) حكمت فهمى



شاهدت حصار الدبابات

لقصر عابدين عام ١٩٤٢ !!

جانب كبير مما عاصرته وشهادته الفنانة حكمت فهمي فيما يخص أحداث تاريخ مصر فى العصر الحديث.. يرجع فى الأصل إلى علاقة مصر الخارجية فى فترة الحرب العالمية الثانية.. وهى فترة ثرية بحق.. نتج عن أحداثها العديد من النتائج التى غيرت وجه تاريخ الإنسانية كله.

ولم يتوقف دور هذه الفنانة الراقصة المتألقة عند حد المشاهدة.. بل دفعتها أحاسيسها الوطنية كمصرية بأن تشارك وتساهم مساهمة فعالة فى صنع جزء كبير من تاريخ مصر خلال الفترة المذكورة.. هذه المساهمة كلفتها سنوات جميلة من عمرها قضتها بين جدران سجن الأجانب وكانت مهددة بالفعل بالموت شنقاً.

ولقد عبرت الراقصة حكمت فهمي عن نبض كل مصرى آنذاك حين قبلت طواعية أن تتعاون مع الألمان ضد قوات الاحتلال البريطانى.. وقد ضربت بذلك أروع الأمثلة فى التضحية.. بالنفس والمال وبالمستقبل. وقد سبقها إلى هذا المسلك الوطنى الكبير العديد من رموز مصر السياسية والعسكرية. من الذين قبلوا أيضا التعاون مع شيطان الألمان من أجل ضرب قوات الاحتلال البريطانى كوسيلة من وسائل إعلان حالة الرفض على استمرار الوجود البريطانى فوق أرض مصر.

وحقيقة وموافقة الراقصة حكمت فهمى على التعاون مع المخابرات الألمانية لم ينشأ من فراغ.. بل سبقه العديد من الأحداث السياسية التى عايشتها حكمت فهمي نفسها والتى أثرت فى تكوينها الشخصى والسياسى.. بل وكان أحد دوافعها للتعاون مع شيطان الألمان ضد قوات الاحتلال البريطانى هذه المؤثرات نشأت معها فى مرحلة طفولتها الأولى التى قضتها فى مدينة المنيا بصعيد مصر.

وقد عبرت حكمت فهمى عن تلك المؤثرات المبكرة فى حياتها بقولها:
"كان فى خيالى حادث قديم عندما كنت فى هذه السن الصغيرة أسير فى طريقى وجدت نفسى فجأة وسط مظاهرة وطنية يطاردها الإنجليز لم أستطع الجرى.. سقطت على الأرض وأحد الكونستبلات ينهال علىّ ضرباً بالكرباج لينتقم من المتظاهرين الفارين، أغمى على من شدة الضرب وانبثق الدم من فمى وسال ثم أفقت من إغمائى فى المستشفى، ومنذ ذلك اليوم أضمرت للإنجليز كراهية لاحدود لها".

ولقد ظل هذا الحادث الأليم يطارد الفنانة حكمت فهمى حتى من بعد أن أصبحت نجمة متألقة فى سماء الرقص الشرقى خلال فترة الأربعينيات من هذا القرن. ومما زادها ألماً على آلامها وغيظها الذى صب كراهيته ناحية الاحتلال البريطانى. ذلك الموقف الذى عاصرته بل وكانت شاهد عيان عليه.. حين رأت الدبابات البريطانية تحاصر قصر عابدين والسفير البريطانى آنذاك يطلب من الملك على سبيل الإنذار تعيين مصطفى النحاس باشا رئيسا للوزراء، وإلا سوف تطيح بريطانيا بالملك فاروق نفسه.

وحكمت فهمى تحكى للتاريخ هذا الموقف أيضا لكى يضاف لما حكاه المؤرخون عن حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢.. فقالت :

"فى خريف عام ١٩٤٢.. وصلت تلك الليلة إلى الملهى مبكرة. كان خاوياً من الرواد إلا من بعض أشخاص قليلين يجلسون متفرقين، كأنهم مدعوون إلى جنازة مما جعل جو المكان كئيباً، محزناً.. وأعتقد أن ذلك راجع إلى الهزائم المتكررة التى لحقت بالجيش الثامن الإنجليزى وشدة هجمات روميل.

وكان السفير البريطانى لورد كيلرن قد طلب آنذاك من الملك صراحة بعد استقالة حكومة سرى باشا رغبة بريطانيا فى أن يتولى الوفد الحكم.. هادفين من وراء ذلك إلى كسب الرأى العام بإقامة حكومة شعبية، لكن النحاس رفض تشكيل حكومة إئتلافيه كعادته، فعاد السفير ينصح الملك ثانية.

وفى هذه الليلة جلست بالملهى، وكان مستر "وليم سامسون" موجوداً أيضا. وعندما رآنى.. اقترب منى قائلاً : إنى حزين من أجلك ! إن دباباتنا الآن داخل قصر عابدين. ارتعد جسمى، قلت بانفعال، لأى سبب تدخل دباباتكم قصر عابدين؟!

قال ببرود : يافتاتى نحن نخسر الحرب مع الألمان الذين يرابطون على بضعة أميال من الاسكندرية، وحكومتنا لها مطالب عند الملك، فإذا لم يتم تنفيذها فسوف نحمله بعيداً عن البلاد.

ثم ضحك سامسون ضحكة عريضة وقال دعك من هذا الحديث. وتعالى معى لنشاهد، هل انصرفت دباباتنا دون فاروق أم أخذته معها؟!.

وتمالكت مشاعرى، صحبته على مضض إلى سيارة الجيش الخاصة به، وبينما هى تنطلق تحدثنا فى أمور كثيرة كان منها سبب إكثارى من مصاحبة الضباط..

وخيم الصمت علينا.. فالشوارع التى تطرقها السيارة خالية من المارة وأكثر الملاهى يسودها الكساد.. وتوقفت بنا السيارة فى شارع حسن الأكبر، ولم يكن ممكنا أن نستمر أكثر من ذلك، فالدبابات تحاصر القصر، ومصوبة مدافعها إليه استعداداً لتدميره عند إعطاء الأمر.

وعرفنا أن السفير البريطـانى دخل القصـر فـى عربـة مصفحـة مصحوبـاً بالجنرال "أستون" قائد القوات البريطانية في مصر.. وكذلك بعض كبار الضباط الإنجليز، وقيل إن السفير كان يحمل معه وثيقة التنازل عن العرش، وعرفنـا أن الحرس داخل القصر قد جردوا من سلاحهم وقطعت أسلاك التليفونات.

وبعد فترة - والحكاية لازالـت ترويهـا الفنانـة حكمت فهمـى - خـرج السفير، فذكرى خلـع الشـاه مـازالت عالقـة بالأذهـان فرضـــخ الملــك لإرادة الإنجليز، وبدأ النحاس يشـكل وزارة وفديـة.. وممـا قيـل فـى هـذا السـياق أن رئيس الديوان نصح الملك بقبول الإنذار!

وتختتم حكمت فهمى هـذه الشـهادة التاريخيـة الهامـة بقولهـا : "لـم أعـد أحتمل هذا المشهد طلبت من سامسون أن نعود للملهى رجعنا صـامتين وفـى أعمـاقى كـان شئ عظيم يتـأكد.. فعلـى هـذه الأرض الطيبـة عشـــت، ومــن خيراتها وتحت سمائها اشتهرت.. فلها ديـن فـى عنقـى، فكمـا أحـب دائمـا أن أكون حرة فى تصرفاتى، أتمنى أن تتحرر مصر كذلك، وسأعمل على ذلك.. وكان عهداً إخذته على نفسى".

* * *

وقد حالف الحظ الفنانة حكمت فهمى حيـن قـررت الانتقـام مـن رجـال الاحتلال البريطانى حيث كانت قد تعرفـت أثنـاء إحـدى زيـاراتهـا الفنيـة إلـى أوروبا بشاب أخذ يطاردها لمدة يومين، وعندما التقت به عرفها بنفسـه علـى أنه طالب مصرى يدرس فىألمانيا، هـذا الشـاب نفسـه كـان أحـد الجاسوسـين الألمان التى دفعت بهمـا ألمانيـا لدخـول مصـر ومحاولـة التعـاون مـع بعض المصريين للعمل ضد القوات البريطانية هناك!.

وكانت الفنانة حكمت فهمي إحدى الشخصيات المهمة التي تقرر الاتصال بها في القاهرة لتسهيل مهمة هذين الجاسوسين!. خاصة بعدما فشلت المحاولة الأولى من جانب المخابرات الألمانية لاختراق الجتمع المصري في فترة الأربعينيات.

وقد اعتمدت عناصر هذه المخابرات في تلك المحاولة على اكتساب ثقة التيار الوطني الثائر ورغبته في إجلاء قوات الاحتلال البريطاني عن مصر.

وكان على قمة هذا التيار.. القائد العسكري الفريق عزيز المصري الذي كان الألمان يلقبونه بالزعيم، ومجموعة من الضباط الذين كان من أبرزهم آنذاك أنور السادات.

كما وجدت الفنانة حكمت فهمي في اتصال هذا الجاسوس وزميله بها طريقة مثلى للانتقام من المحتلين.. والتعبير عما بداخلها من سخط هز نفسها وعقلها منذ فترة مبكرة من حياتها.. وذلك المشهد المهين الذي عايشته على أبواب قصر عابدين فيما سمى بحادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢!.

ورغم أن هذا الاتصال قد أدى بالفنانة حكمت فهمي إلى السجن الذي قضت به نحو عامين ونصف.. كما قضى على مشوارها الفني.. إلا أن التاريخ لم ولن ينسى لها ذلك الدور الوطني العظيم الذي لو كتب له النجاح لتغير تاريخ مصر كله في فترة الحرب العالمية الثانية !.

***

ويقول الكاتب الصحفي الراحل "جليل البنداري" : لقد كانت حكمت فهمي الراقصة المصرية الوحيدة التي رقصت في الفترة بين عام ١٩٣٧ وعام ١٩٣٩ في قصور ملوك أوروبا وزعمائها، قصراً قصراً.

لقد رقصت أمام دوق وندسور وهتلر وموسوليني وجورنج جوبلز وآخرين، وكانت الفنانة حكمت فهمي على صلة مبكرة بالوسط الفني.. لأن خالتها الفنانة القديرة "عزيزة أمير".. قد ساعدتها في أن تعمل في بداية مشوار حياتها ممثلة صغيرة في الفرق المتنقلة بين محافظات الوجهين القبلي والبحري.

وبعد فترة سافرت حكمت فهمي في رحلة فنية إلى بعض الأقطار العربية، وهناك لمع اسمها حيث وصل أجرها في تلك الفترة إلى أكثر من ستين جنيها في الشهر.. وعندما عادت مرة أخرى إلى القاهرة تولت بطولة فرقة "بديعة مصابني" بمرتب ٣٠ جنيها في الشهر.. ورغم ذلك لم تأنس حكمت فهمي إلى فن التمثيل، فجذبها فن الرقص الذي أبدعت فيه إلى حد الإعجاز، وذلك على حد قول بعض مؤرخي أهل الفن.

إلا أن حنين فن التمثيل والشوق إليه عاودها مرة أخرى خاصة بعد أن انتهت من محنة السجن الذي قضت به أكثر من عامين ونصف.. ففي عام ١٩٤٦ مثلت في فيلم "المتشردة" من إنتاجها ومن إخراج المخرج الراحل "محمد عبدالجواد". وقد شاركها البطولة في هذا الفيلم كل من الفنان الراحل محسن سرحان وسراج منير ومختار عثمان، وقد تزوجها المخرج محمد عبدالجواد بعد إخراج هذا الفيلم وأنجب منها ابنها الوحيد.

ولقد تمتعت حكمت فهمي كما قال الصحفي الراحل الكبير "جليل البنداري" بشهرة عالمية واسعة في مجال الرقص الشرقي. هذه الشهرة تحدثت عنها العديد من الصحف والمؤرخين الأجانب من الذين نوهوا عن دورها في عملية التجسس الألمانية ضد بريطانيا في فترة الحرب العالمية

الثانية. فكتب عنها "بول كارل" عن دور الجاسوسية.. وهو الدور الذى أعده لها القدر على حد تعبير الأديب "حسين عيد" الذى أعد مذكرات حكمت فهمى وأخرجها إلى النور.. لتلعب فيه دوراً رئيسياً فوق مسرح أحداث الحرب العالمية الثانية فى مصر.. مع جاسوسين ألمانيين زرعتهما المخابرات الألمانية فى القاهرة لتوفير المعلومات الهامة التى يحتاجها روميل فى معركته الحاسمة ضد جيوش الحلفاء فى الشرق الأوسط.

ومما ذكره "بول كارل" قوله عن حكمت فهمى، الفنانة الراقصة : "كانت جميلة جداً، نموذجاً للجمال العربى، ذات جسد رائع وحركات متجانسة، وأعين نجلاء، وملامح مصرية أصيلة وراقصة ممتازة ولايوجد خارج القاهرة مثل هذا القوام، لا فى برلين ولا فى حدائق الشتاء، أو "الأسكالا" أو حتى فى الفولى برجير فى باريس، أو فى كازينو دى بارى!.

وعندما ترقص يدور التصفيق كالعاصفة ويقذفون إليها باقات الزهور، ويقوم الصبية الصغار بالسير جيئة وذهاباً حاملين بطاقات المعجبين الأثرياء لها وكانت حكمت فهمى تنتقل كالملكة يصحبها بلاطها.. وكان أصدقاؤها ومعارفها اسطورة.

***

ليس هذا فقط.. بل احتلت حكمت فهمى رؤوس الموضوعات التى كتبت فى العديد من الصحف والمجلات والمؤلفات الأجنبية عن دور المخابرات الألمانية فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية ومما كتب عنها فى هذا السياق ما سجله "ليونارد موزلى" فى كتابه "القطط والفئران" حين قال: إن حكمت فهمى كانت همزة الوصل بين الجاسوسين وأنور السادات،

وهى التى دبرت اللقاء معهما بناء على طلب جون إيلر وكان المكان الوحيد فى أحد مساجد القاهرة الأثرية فى مصر القديمة.. وهو الذى تحدث عنه السادات فى كتابه "الثورة على ضفاف النيل"

وأضاف "موزلى" أيضا عن حكمت فهمى وعلاقتها بمهمة جون ابلر الجاسوس الألمانى قوله : إنه ذهب – أى إيلر – إلى حيث ترقص حكمت فهمى، فهى أشهر راقصات مصر فى تلك الفترة والتى تربطها بها علاقة حميمة..

لقد بعث "إيلر" بيد الجارسون تذكرة كتبها على ورقة حساب خاصة بالمحل... وبعد لحظات جاءت وأخذت يده وقالت له بالعربية : مرحباً بعودتك ياحسين فقد كانت تعرفه على أنه حسين جعفر وليس "إيلر" الألمانى وما أجمل أن يرى المرء صديقاً.. وصديقا شابا من جديد!!

وبخلاف ذلك كتب عنها أيضا "بول كارل.. فيما يخص علاقتها بقضية التجسس الألمانى فى قوله : "كان العميل الأول فى نقل الأخبار هى أشهر راقصة فى مصر، وهى الراقصة حكمت فهمى، فعلاقاتها الطيبة مع الضباط البريطانيين قد مكنتها من الحصول على معلومات خطيرة للغاية، فالراقصة المحبوبة جداً كانت تكره الإنجليز وكانت من أجل ذلك على استعداد للقيام بأى عمل من أعمال التخريب ضد العدو.. عدو وطنها مصر.. ولم يتوقف "إيلر" عند حد إستغلال هذا الشعور لديها وقد أخبرته حكمت فهمى عن انتقال عناصر من الجيش البريطانى من سوريا وفلسطين إلى مصر.. كما أخبرت الجاسوسين الألمانيين عن وصول مائة ألف لغم إلى جبهة العلمين.. وذلك عندما قررت بريطانيا إقامة خطها الدفاعى المحصن فى هذه المنطقة بالرغم من أنه فى ذلك الوقت لم يكن الموقف واضحاً.

كما علم إبلر من حكمت فهمــى عـن انتقـال الفرقـة النيوزيلنديـة الثانيـة تحت قيادة الجنرال فربيرج إلى مرسى مطروح وذلك قبل أن تتحـرك الفرقـة بزمن طويل".

* * *

إنها قصة بطولـة حقيقيـة سطرتها هذه الفنانـة وشـهدت علـى هامشـها العديد من الأحداث السياسية والتاريخية التى حفل بها تاريخ مصـر.. وتـاريخ الإنسانية كله.. وكانت بحق من الذين وقفوا فى ساحة المجد من أجل تسـجيل بعض لقطات من تاريخ مصر الحيوى..

ولقد سبق لنا القول.. إن هذه الفنانة وماعاصرته ارتبطت فـى معظمـه بـالأحداث الدوليـة التـى كـانت بريطانيـا الدولـة المحتلـة لمصـر آنـذاك طرفـا أساسيا فيه.. ولولا احتلالها لمصر فى الفترة نفسـها.. لمـا فكـرت ألمانيـا فـى إختراق المجتمع المصرى من أجل البحث عن عملاء لهـا يسـاعدون رجالهـا للقضاء على بريطانيا فى حربها معها.

وكما سبق وأشرنا فإن حكمت فهمى لم تكن وحدها فـى هـذا الميـدان.. بل سبقها إليه العديد مـن الوطنييـن المصرييـن.. الذيـن ذاقـوا مـرارة السـجن عقاباً لهم على اشتراكهم فى هذه المهمة الوطنية.. وشاركوها سجن الأجـانب فى فترة العقوبة نفسها!.

ومما يدل على ذلك ماسطرته حكمت فهمى نفسـها عـن هـذه الظـروف الدولية التى عاصرتها وهى خارج مصر وكانت بذلك المقدمة القوية لنشـوب الحرب العالمية الثانية!.

ويكفى أن نذكر فى هذا السياق قولها : "بدأت هذه الأحداث الغريبة فى "فيينا" عاصمة النمسا، حيث كنت أرقص فى ملهى "الفيمنا" اكبر ملاهى "فيينا" بعد رحلة فنية استمرت لمدة ثمانية أشهر بادئة من "بودابيست" بالقطار ثم متنقلة فى مجموعة من الأقطار مثل رومانيا وتركيا وتشيكوسلوفاكيا لأستقر فى النهاية بالنمسا.

وأطنبت الصحف خلال تلك الفترة فى الحديث عنى وامتداح فنى.. وكثيراً ماكنت أقرأ (حكمت فهمى .. مس إيجبت) ثم الكثير من كلمات الإعجاب والمديح.

غير أن هذه الصحف سرعان ما أخذت تتحدث عن الاستفتاء المرتقب الذى تم الإعلان عنه ليتم إجراؤه فى التاسع من مارس عام ١٩٣٨. خاصة بعد الرضوخ فى فبراير لإنذار هتلر الذى طلب فيه إشراك النازيين فى الحكم، وحدد له الوزارات التى يتولونها..

وتنبهت فى الصباح على ضوضاء مزعجة، وخليط من الأصوات لاعهد لى به.. نهضت مذعورة.. نظرت من النافذة بالفندق الذى أقيم به والنوم يثقل جفونى.. كانت جيوش هتلر تحتل أرض النمسا دون مقاومة".

***

ولولا تدخل القنصلية المصرية فى النمسا لما تمكنت حكمت فهمى من مغادرة فيينا التى طالتها أحداث الحرب العالمية الثانية، والتى امتدت آثارها لكل أوروبا.. بل وتأثرت بها مصر أيضا.. لأن بريطانيا التى شاركت فى هذه الحرب إلى جانب فرنسا وروسيا كانت تحتل مصر فى ذلك الوقت.

وعندما عادت حكمت فهمى إلى مصر فى سلام.. عاودت رحلتها الفنية مرة أخرى بالعمل راقصة أولى بملهى فندق الكونتننتال الذى شهد صراعها الكبير مع المخابرات البريطانية، وقد انتهى بها المطاف إلى السجن الذى قضت فيه سنوات بلغت عامين ونصفا!.

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا السياق : وهل من المعتاد أن ينهى البطل حياته خلف جدران السجون؟! وربما يبدو كانت من قبل سمة.. وقد صاحبت من قبل فنانة أخرى مثل روزاليوسف التى طالتها أيضا هذه العقوبة.. مع الفارق فى التوقيت وفى الأسباب!.

* * *

فيالهما من إمرأتين فنانتين ذاقتا مرارة السجن فى سبيل القضية الوطنية.. وتلك السمة كانت أحد دوافعهما لتسجيل هذه التجارب المريرة التى طوقت كفاحهما فى مجال السياسة وفى مجال تسجيل تاريخ مصر الحديث.

(٦) منيرة المهدية



رشدى باشا يشكل
وزارته فى عوامتها

ومن يقرأ قصة حياة الفنانة "زكية حسن" المعروفة باسم منيرة المهدية.. يعرف أن هذه الفنانة قد عاصرت العديد من أحداث تاريخ مصر الحديث.. وروت جانبا لابأس به من هذا التاريخ خاصة فيما يتعلق بعلاقاتها المتعددة برموز السياسة المصرية على مدى أكثر من عشرين عاماً.

هذه الرموز السياسية البارزة كانت تجد فى عوامة الست منيرة كل راحة وهدوء وفرفشة بعيداً عن مشاغلهم ومشاكلهم سواء مع الجماهير أو مع الأحزاب أومع الملك أو مع الإنجليز.

ليس هذا فقط.. بل وتفصح لنا قصة حياة هذه الفنانة عن دور آخر من أدوارها الوطنية والتى تجلت فى نوعية الفنون التى كانت تقدمها مساهمة منها فى إشعال الروح الوطنية التى كانت متأججة آنذاك ضد قوات الاحتلال، وبث المزيد من الأحاسيس الصادقة من أجل الوقوف بقوة خلف زعيم ثورة ١٩١٩.

وعند حديث المؤرخين عن دور الست منيرة المهدية خاصة فى عالم الفن يطفو إلى أذهانهم دور عوامتها الفنية التى كانت تطفو على سطح نيل الجيزة فى اتجاه "ميدان الكيت كات" وكانت تحمل رقم ١٥٥..

هذه العوامة التى قصدها العديد من رؤساء حكومات مصر.. ليس على سبيل الراحة والفرفشة.. بل لجأوا إلى منيرة وعوامتها من أجل الاختفاء بعيداً عن عيون الخصوم السياسيين.. أو لإعلان أسماء التشكيل الوزارى الجديد.

ولسوف يمر علينا بعد لحظات.. كيف أراد "حسين سرى باشا" رئيس وزراء مصر فى الثلاثينيات.. أن يضم الست منيرة إلى وزارته أو إلى حكومته لولا خشيته من الخصوم السياسيين.

كما سوف نعرف كذلك كيف تمنى آخرون أن تغنى الست منيرة للقوات البريطانية التى كانت تحتل مصر آنذاك من أجل أن ترحل تلك القوات عن مصر.

* * *

ومما يجب التأكيد عليه أن الفنانة الممثلة والمطربة الست منيرة.. كما كان يحلو لعشاقها أن ينادوها كانت مثار خلاف كبير بين المؤرخين من أهل الفن كما كانت شهرتها الواسعة ونفوذها القوى وأيضا أعمالها الفنية المتميزة مثار خلاف كذلك ..

والمتتبع لمسيرة تاريخ مصر الفنى سوف يلاحظ ذلك وأكثر.. بل وقد عالج هذا الخلاف العديد من المؤرخين الفنيين المصريين وغير المصريين.

وهناك شبه خلاف تقريبا بين هؤلاء المؤرخين حول مكان ولادة ونشأة منيرة المهدية.. فقد تعددت الآراء واختلف الباحثون فى تحديد ذلك المكان التى ولدت فيه منيرة..

فبينما يذكر "عبدالحميد توفيق زكى" أنها من مواليد قرية المهدية التابعة للإبراهيمية مركز ههيا بمحافظة الشرقية، ويؤيده فى ذلك المؤرخ المسرحى "منير محمد إبراهيم" فى حين تذكر هى نفسها وفى أحد أحاديثها الصحفية لمجلة المسرح الصادرة فى عام ١٩٢٧ أنها نشأت فى مدينة الإسكندرية حيث كانت تعيش هناك فى كنف اختها!.

ومما ذكرته الست زكية حسن "منيرة المهدية" عن نشأتها قولها فى مذكراتها : "كنت طفلة لا أدرى من أحوال الدنيا شيئاً وكنت فى الإسكندرية موطن أهلى ومهد نشأتى الأولى، وهناك أدخلنى أهلى المدرسة ووجدت فى

المدرسة حجباً لحريتي وإرهاقاً لعقليتي الصغيرة فعملت على إيجاد وسيلة لمغادرتها.

وكان والدى قد مات، وأنا طفلة وكانت تشرف على تربيتى وتهذيبى أختى الكبيرة وهى التى أدخلتنى المدرسة، وفى صباح كل يوم كنت أرتدى ملابسى وأنزل قاصدة المدرسة ولكننى كنت أختفى تحت السلم فأخلع ملابس المدرسة وأخبئها هناك ثم أرتدى فستانا أعددته لهذا الغرض وأخرج من المنزل حتى إذا ماحان موعد انصراف التلميذات رجعت إلى المنزل.

***

ويكاد يجمع المؤرخون على أن الطفلة "زكية حسن " قد اشتهرت وهى طفلة صغيرة بحلاوة الصوت وعذوبته ، وكانت تغنى وهى صغيرة فى القرى والمدن المحيطة بمركز "ههيا"، وذاعت شهرتها فى محافظة الشرقية وانتقلت للغناء فى الزقازيق عاصمة المحافظة ، وذات يوم زار الزقازيق أحد أصحاب ملاهى القاهرة فسمع صوتها وأقنعها بالسفر إلى القاهرة حيث الأضواء والشهرة.

وقد أمضت منيرة المهدية أيامها الأولى فى القاهرة فى المقهى الذى كان يديره "محمد فرج" وكان ذلك فى عام ١٩٠٥. ومن أشهر تلك الأدوار الغنائية التى غنتها فى تلك الفترة "أسمر ملك روحى" - "ياحبيبى تعالى بالعجل" وغير ذلك من الأدوار التى مازالت الاسطوانات تحتفظ بها لمنيرة المهدية.

وبعد فترة زمنية قصيرة تحولت منيرة المهدية إلى أشهر مطربات المسرح الغنائي. وهناك من يرى من المؤرخين أن هذه الفنانة قد اضطلعت

بإحدى الخطوات الهامة فى مجال تطور المسرح الغنائى. كما كانت أول سيدة مصرية مسلمة تملك فرقة خاصة وتظهر على المسرح على الإطلاق.

على الرغم من أنها بدأت هذا المشوار الفنى الطويل مغنية بين فصول المسرحيات التى كانت تقدمها الفرق المختلفة المنتشرة فى العقد الثانى من القرن العشرين.

وكانت بداية ظهورها على خشبة المسرح كممثلة مصرية فى صيف عام ١٩١٥. وقد برهنت بذلك على جرأة المرأة المصرية وطموحها الفنى وعلى إرادتها القوية التى تحدت بها كل تقاليد المجتمع السائدة آنذاك.

ومما يشر إليه المؤرخون فى هذا السياق أن دخول السيدة منيرة المهدية إلى عالم المسرح قد ارتبط إلى حد بعيد بقيام الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤. حين أصدرت سلطات الاحتلال التى وضعت مصر تحت الحماية أوامرها بإغلاق البارات ومقاهى الرقص والغناء ابتداء من الساعة العاشرة، وبذلك فقد فقدت تلك المقاهى العوائد الكثيرة التى ارتبطت بسهر الأعيان فيها فبدأ أصحابها فى البحث عن موارد رزق جديدة.

ولاشك أن هذه الشهرة الواسعة التى حظيت بها فنانة كبيرة مثل منيرة المهدية قد جعلتها تقترب اقتراباً لمسافات تبعد فقط سنتيمترات من رجال السياسة ومن أحداث مصر خلال فترتى الحرب العالمية الأولى والثانية بل وكان لها دور إيجابى أيضاً فى أحداث ثورة ١٩١٩.

وكان لمسرح سلطانة الطرب بلاط خاص من رجال السياسة المصرية ومن زعماء الأحزاب وكبار الموظفين والقضاة وأثرياء القوم.

ومع ذلك لم تتبهر الست منيرة ببريق هذا البلاط الذى أحاطها أصحابه بالرعاية من كل جانب، كما لم ينسها دورها الوطنى، فاستغلت نفوذها لدى

أصحاب الشأن فـي أخذ العفو عن كثير من الطـلاب الذين كـانوا يقدمـون للمحاكمات أيام ثورة ١٩١٩، بل وقد اضطرت مرة للذهاب إلى "اللورد اللنبي" لتأخذ منه أمراً بالعفو عن طالب وحيد لأمه قبضوا عليه أثناء الاضطرابات.

بل ولم يقف دور هذه الفنانة المتألقة في ثورة ١٩١٩ عند حد الوساطة للأفراج عن الوطنيين فقط. بل وكما يؤكد المؤرخ الفني "كمال سعد". قد تعداه إلى المشاركة في إلهاب المشاعر الوطنية وإيقاظ الأحاسيس الشعبية من أجل الوقوف خلف زعيم الثورة.

فهي التي أطلقت عليها الصحافة "هواء الحرية في مسرح منيرة المهدية"، وهي التي قدمت وقتها مسرحية "كلام في سرك" التي كانت قصتها تدور حول رجل أجنبي يملك مصنع تطريز تعمل فيه عشرين بنتاً يستغلهن أبشع استغلال.

وفي نهاية الرواية تطالب الست منيرة البنات بالسير وراءها للتخلص من هذا الأجنبي بإقامة مصنع عربي للتطريز، وبالفعل تقيم البنات المصريات هذا المصنع.. لتنتهي الرواية بصاحب المصنع وهو يتسول لقمة العيش!!.

ومما يقال في السياق أن رائد الاقتصاد المصري طلعت حرب قد شاهد هذه المسرحية.. وقد صرح من بعدها أنه أقتنع بضرورة تنفيذ فكرته بإنشاء بنك مصري ومصنع عربي!.

كما قدمت منيرة المهدية رواية وطنية أخرى أسمها "كله يومين" بمعنى أن كلها يومين ويخرج الإنجليز، ورمز "يونس القاضي" مؤلف هذه الرواية

إلى "السلطان عبدالحميد" بشخصية رجل تركى فى حالة وصاية على منيرة المهدية والتى هى مصر!!.

وفى هذه الرواية تروى الأخت لأختها كيف أن الإنجليز إستعانوا بهذا الرجل التركى، وسلبوا أموالها، فيثور الأخ ويصمم على قتل كل من تسبب فى هذه الكارثة، وتشجعه أخته على ذلك، ويذهب لأداء هذه المهمة وكلمات اخته لازالت صداها فى أذنه وكانت تقول له:

شرفك لوضاع منك وإتهان
منين تجيب غيره بكره
وإن عشت عيش حر ومنصان
وإن مت خلى ده ذكرى
مالك مرصود.. ربك موجود
عمرك محدود...
الموت ولا العيشة المرة!

* * *

كما كانت لمنيرة المهدية أيضا وطوال ثورة ١٩١٩ عدة روايات... أشعلت الحماسة فى نفوس أبناء الشعب المطالبين بحقوق مصر فى الاستقلال وفى الجلاء. كما كان لكلماتها وقع السحر على طوائف الشعب الذين كانوا يبادرون بالمشاركة فى المظاهرات والمطالبة بعودة الزعيم ورحيل المستعمر!.

وهناك جانب آخر فى حياة منيرة المهدية كواحدة من أهل الفن من الذين كتبوا تاريخ مصر بدموعهم وطموحاتهم.. هذا الجانب كما سبق وذكرنا من قبل قد تجلى فى تفوقها غير المسبوق فى علاقاتها المتميزة برجال السياسة المصرية من الذين كانوا يشاهدون فى عوامتها الشهيرة.. الملجأ والملاذ من هموم السياسة وصراعاتها العلنية والسرية.

ولسوف نترك الست منيرة لتحكى لنا عن هذه العلاقات ومستواها وأنواعها، وعلينا من بعد سماع مارويته هذه الفنانة أن نستنتج موقعها فوق خريطة الأحداث التاريخية التى شاهدها هؤلاء السياسيون من ضيوف الست منيرة في عوامتها رقم ١٥٥ على نيل الجيزة!.

ولقد ظل تقليد لجوء العديد من السياسيين المصريين خاصة فى فترة ماقبل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ إلى عوامات الفنانات من أجل تشكيل وزارتهم الجديدة سائداً.. حتى أن آخر وزارة من الوزارات الأربع التى شكلت قبيل الثورة.. تم الإعلان عن أعضائها بعد سهرة فنية حضرها رئيس الوزراء فى إحدى هذه العوامات. وقد حضر الكاتب الصحفى الراحل موسى صبرى تشكيل إحدى هذه الوزارات ليلاً.. حيث قال فى مذكراته : "كانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة فى حياتى الصحفية، التى أحضر فيها مولد وزارة.. فى عوامة بعد منتصف الليل".

وتشكيل الوزارة التى حضرها موسى صبرى بعد حريق القاهرة كانت هى وزارة على ماهر التى أعقبت إقالة وزارة النحاس باشا.. ومما قاله موسى صبرى عن هذه الواقعة : "كانت الساعة حوالى العاشرة مساءً حيث وصلنا فى عربة إسعاف.. وكان على ماهر يتناول العشاء ومعه الدكتور محمود ماهر وإبراهيم عبدالهادى ومحيى الدين فهمى، وكانوا ينتظرون إرسال مرسوم الإعفاء من الحكم إلى مصطفى النحاس ووصول مرسوم تأليف الوزارة إلى على ماهر".

ولذلك لم تكن منيرة المهدية آنذاك غير بعيدة عن أجواء السياسة المصرية ولاعبي رموزها.. ولسوف نلاحظ ذلك مما سوف ترويه.. حيث حرصت تماماً على تسجيل تلك اللقاءات فى كل أوراقها الخاصة.

والغريب أن حضورها تأليف وزارة لم يقتصر على رجل سياسي واحد.. بل حرص غير سياسي كبير على تأكيد هذا التقليد.. ومما سجلته الست منيرة عن هذه الأحداث التاريخية ما ارتبط بتأليف حسين رشدى باشا لإحدى وزاراته فى عوامتها.. بل وتعدى أمر هذا السياسي الكبير إلى حرصه الشديد على حضور كل حفلاتها السرية والعلنية.. سواء داخل العوامة أو خارجها.. ولم يتوقف أمر اهتمام رجال السياسة بالست منيرة المهدية على رجل بعينه.. بل امتد ليشمل العديد من السياسين أمثال عبدالخالق ثروت وحسين رشدى وإبراهيم فتحي وآخرين..

ومما قالته سلطانة الطرب عن هذه العلاقات :

"لست أتذكر متي أو أين كانت المرة الأولى التى التقيت فيها بالمغفور له حسين رشدى باشا.. ولكن كل ما أتذكره أننى عرفته وهو رئيس مجلس الوزراء.. وكان رشدى باشا مثقفاً ثقافة فرنسية، وقد قال لى مرة إنه مكث فى شبابه سبعة عشر عاماً فى باريس لكنه مع ذلك يحب الغناء العربى.. وكثيراً ما كان يشاهد الرواية الواحدة خمس مرات أوستاً".

ثم أضافت منيرة المهدية فيما ذكرته عن علاقتها برشدى باشا :

وكثيراً ما دخل المسرح بين الفصول وزارنى فى غرفتى فى المسرح ليشجعنى بكلمة أو يداعبنى بنكتة أو يهمس فى أذنى أن الممثل الفلانى دمه ثقيل!.

وأقمت مرة حفلة خاصة فى دارى وعوامتيعلى النيل، ودعوت رشدى باشا بين مادعوت، ويظهر أنه أحب سهراتى، أو لعله أعجب بروح المرح والسرور التى تسودها فأصبح يزورنى باستمرار.

وكان رشدى باشا لايحضر منفرداً، بل كثيراً ما كان يصحبه ثلاثة أو أربعة من زملائه الوزراء.. وأحيانا كان يحضر ومعه الوزراء جميعهم.. وكان يضحك ويقول : أدينى جايب لك مجلس الوزراء بحاله!.

وقد صادفت رشدى باشا أزمات سياسية كثيرة.. بل لاأعتقد أن هناك رئيس وزراء تعب كما كان يتعب رشدى باشا فى تلك الأيام.. فكان يخرج من عمله وهو فى حالة عصبية مؤلمة، مشتت الفكر منهك القوى!!.. وكنت أراه على هذه الحالة فأداعبه وأحاول أن أسرى عنه وسرعان ما أرى الابتسامة على شفتيه، وأسمع ضحكته الرنانة تعلو فى جوانب الصالون.

وكم من مرة تعقدت الأمر وتحرج الموقف السياسى، فكان رشدى باشا يجتمع مع وزارئه فى عوامتى يتباحثون ويتناقشون ثم يجدون حلاً لمأزق سياسى أو يتخذون قراراً خطيراً فى سياسة مصر ومستقبلها!.

ولوفكر يومها صحفى فى أن يسترق السمع من وراء صالونى لسوف يعرف أسرار البلد، ولكن أحداً لم يدر بخاطره يومها أن مجلس الوزراء ينعقد فى عوامة منيرة المهدية!

وكان رشدى باشا يقول لى : لما آجى عندك.. بالى بيروق، ومخى يستريح وآلاقى أفكار جديدة وحلول كويسة.. أنا من بكره لازم أجيب مكتبى هنا.

وكنت أنا أضحك وأقول : طيب ماتعملنى معاك وزيرة.. فكان يقول لى وهو جاد : تعرفى يا منيرة أنت تقدرى تبلغى الإنجليز أهدافى.. يمكن غنوة منك تجيب الاستقلال التام!. وسمعه ثروت باشا بيقول هذا الكلام مرة فقاطعه قائلاً : بالعكس ياباشا يمكن الإنجليز يسمعوها وتعجبهم فيقعدوا فى مصر على طول!!.

وقالت منيرة المهدية أيضا :

وأذكر مرة أننى كنت أمثل رواية "مارك أنطونى وكليوباترا".. وكنت أنا أمثل "كليوباترا".. وكان يمثل دور "أنطونى" الأستاذ محمد عبدالوهاب، وكنت يوماً جالسة فى غرفتى بالمسرح وإذا برشدى باشا يدخلها بلا استئذان.. وكان رشدى يصيح : إن الولد المفعوص عبدالوهاب ده، أنا أنفع فى دور أنطونى أحسن منه، وكان رشدى باشا فى ذلك الوقت رئيساً لمجلس الشيوخ فقلت على الفور : مفيش مانع تبقى أنطونى ، بس على شرط تعمل عبدالوهاب رئيس مجلس الشيوخ!.

وحدث مرة - والكلام لايزال على لسان الست منيرة - أن أقيم "بال ماسكيه" ورقص متنكر فى تياترو الكورسال، وأعدت جوائز ثمينة لأفخر الأزياء، وذهبت أنا إلى "البار" بملابس كليوباترا ومعى الجوارى والحاشية والجنود.. وكان نظام الحفل يقضى بأن يمر المتقدمون إلى المباراة بين صفوف المتفرجين، وسط عزف الموسيقى ودقات الطبول، وسرت أنا بين الصفوف وورائى الجوارى والحاشية، والجنود، وإذا بالمغفور له رشدى باشا يقفز من بين المتفرجين، ويسير إلى جانبى فى الاستعراض ثم يأخذ ذراعى فى ذراعه ويصيح بصوت عال : "أنا أنطونيو الوحيد".. ويومها نلت الجائزة الأولى، ولا أعرف هل نلتها لأننى مثلت كليوباترا كما يجب ؟ أم لأن أنطونى كان صاحب الدولة رئيس مجلس الشيوخ؟!.

وفى فقرة أخرى مما روته منيرة المهدية لمجلة آخر ساعة، وقد ذكرها الكاتب الصحفى الراحل صبرى أبوالمجد فى كتاب عن محمد التابعى، قالت:

- وعرفت أيضا المغفور له الفريق إبراهيم باشا فتحى وزير الحربية الأسبق، وكان رحمة الله عليه خفيف الظل، سريع النكتة حاضر البديهة،

وكانت مجالسه كلها مجالس ضاحكة باسمة ويظللها السرور والانشراح.. لقد كان يتقبل النكتة بصدر رحب.

وأما المغفور له "عبدالخالق ثروت" باشا فكان خير سميع عرفته فقد درس طباعي وفهمني جيداً، وكنت أستريح كثيراً إذا رأيته حاضراً فى مجلس الغناء. وكان ثروت باشا يحب أن يسمع غنائى بين الهدوء والسكون، بينما كان غيره يحب المرح والصياح، وكنت أنا أتضايق من الضجة، بل وكثيراً ماكنت أمتنع عن الغناء إذا سمعت نكتة خارجة أوقاطعنى أحد الجالسين أثناء الغناء. وكان ثروت باشا يحمينى دائماً، كما كان هو الذى يطلب من الحاضرين أن يسكتوا ولايقاطعوننى إذا غنيت، وإذا ماتقدم أى أحد منهم بكأس من الخمر.. تهره ثروت باشا!. لقد مات رشدى باشا وثروت باشا، ومات ابراهيم فتحى.. ولكن رنين ضحكاتهم فى صالونى لايزال صداه حياً لايموت.

***

وظلت الست منيرة نجماً فنياً مضيئاً فى سماء الفن المصرى حتى اعتزلت الفن فى عام ١٩٣٨ على اثر حادث عندما صدمتها سيارة أثناء ذهابها لافتتاح موسمها الغنائى، وظلت – على حد قول المؤرخ كمال سعد – فى مشوارها الفنى حتى وقوع هذه الحادثة ولمدة عام طريحة الفراش.. ثم قررت اعتزال الفن ولجأت إلى بيت الله الحرام، وحجت ٧ مرات. ثم كرمتها الدولة فى فترة الستينيات فنالت وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى.. وظلت تتمتع بقوة وعافية رغم بلوغها السبعين إلى أن مات زوجها فحزنت عليه وأصيبت بصدمة ماتت على أثرها.

(٧) بديعة مصابنى



جاءت إلى القاهرة
يوم إعلان الاستقلال !

هناك العديد من الأحداث التى سجلها تاريخنا الوطنى.. وارتبطت ارتباطاً مباشراً بمشوار حياة بعض الفنانين وبعض الفنانات.. ووقوع مثل هذه الأحداث واقتراب الفنان منها قد تتم رغماً عنه. لكنها فى الوقت نفسه تُحسب له وتسجل فى تاريخ حياته.. خاصة إذا ما أقبل على المشاركة فى تلك الأحداث.. بعد ما يترك مقعد المشاهد إلى المشارك!.

وقد تدفعه أحاسيسه الفياضة إلى المزيد من هذه المشاركة.. وقد يتوقف عند حد معين منها.. والفيصل هنا يكون متروكا لكم الأحاسيس الوطنية التى تقود الفنان أو الفنانة لهذا الموقف التاريخى أو ذاك..

والفنانة اللبنانية "بديعة مصابنى" من الصنف الأول من أهل الفن من الذين عاصروا حظاً وقدراً.. العديد من الأحداث السياسية دون أن يكون لها مشاركة فعلية فيها.. ومع ذلك فقد أضيفت تلك الأحداث لمشوار حياتها.. وكانت تتعمد هى نفسها فخراً فى أن تتذكر وتكتب تلك الأحداث وبالتفاصيل الواجبة خاصة إذا ما عرفت أن الضيف الذى تتحدث إليه مواطن مصرى، وكانت تلك الذكريات التى تحكيها دوماً من بين بنود البرنامج الذى تضعه لكل ضيوفها من الزائرين لها بعدما هربت من مصر إلى لبنان، وافتتحت هناك مطعماً وفندقاً صغيراً بقرية "شاتورا" اللبنانية إحدى قرى جبال لبنان زمان!.

ولاشك أن الوقوف على تفاصيل هذا الحادث التاريخى الذى عاصرته فنانة مثل بديعة مصابنى.. سوف يبين لنا ولكم كيف لعب الحظ والقدر لعبته الجميلة فى حياتها.. رغم خسارتها الكبيرة التى نتجت عن ذلك الحادث!.

ولقد رأينا من قبل الإفصاح عن تلك التفاصيل.. أن نقول بعض العبارات في سطور قليلة عن أصلها ونشأتها.. لكى نتبين مدى انفعالها بهذا الحادث التاريخى.. وبغيره من الأحداث التى شهدتها مصر فى فترة مابين الحربين الأولى والثانية.

***

لقد عاشت بديعة مصابنى مايقرب من ثلاثين عاماً فى لبنان بعدما هربت من مصر فى عام ١٩٥٠، وهى تقريباً نفس الفترة التى عاشتها بمصر منذ وصولها إليها لأول مرة فى عام ١٩٢٠.. لكنها فى هذه الفترة كانت بعيدة عن الأضواء وعن ممارسة كل أنواع الفنون.

وتقول بديعة فى أوراقها عن بداية حياتها : " ولدت من أم شامية، وأب لبنانى، يوم أن كانت بيروت ودمشق تنتميان إلى الولايات التركية.. ولم يكن اسم "مصابنى" سوى لقب اكتسبه أفراد أسرتى بسبب عملهم فى "مصبنة" كانت تقع فى أحد شوارع دمشق وإعتليت خشبة المسرح وأنا لم أزل أحمل اسمى الحقيقى.."

وفى فقرة أخرى قالت بديعة عن هذه البداية : " كانت عائلتنا مؤلفة من أبى وأمى وسبعة أشقاء.. أربعة صبيان وثلاث بنات، وكنا نعيش حياة راضية مطمئنة، ولو أننى لا أتذكر الشئ الكثير عن تلك الأيام لأننى كنت لاأزال فى سن الطفولة الأولى.. وكان كسب والدى من المصبنة "المغسلة" يقينا العوز، ويؤمن نفقات البيت ومصاريف المدرسة، ويجدر بى هنا أن أعترف بجميل والدى الذى كان على خلاف أهل زمان يعتنى بتربية البنات وتعليمهن.."

وتشاء الظروف أن يرتبط مشوار حياة بديعة مصابنى فى الفن فى مصر بالعديد من الأحداث السياسية. وقد عاصرتها آنذاك على سبيل المشاهد دون المشارك.. والمشاهدة فى تصورنا هى نوع من المشاركة السلبية، ولذا نرى من الواجب إلقاء بعض الأضواء المبهرة على تلك الأحداث وصولاً إلى الحدث الأكبر الذى عاصرته بديعة مصابنى معاصرة كاملة وهو مقتل أحمد ماهر باشا.

***

ففى الفترة التى بدأت فيها أولى خطوات الحياة النيابية فى مصر من بعد صدور دستور عام ١٩٢٣، بدأت بديعة مصابنى أولى خطواتها الفنية كتلميذة فى فرقة نجيب الريحانى، إذ سمح لها هذا الفنان القدير أن تشاركه أحد أعماله المسرحية الهامة بعدما جهزها فنيا طوال عام.

ففى ٢٢ مارس عام ١٩٢٣ نشرت إحدى الصحف اليومية "أوبريت جديد" للفنان نجيب الريحانى من تأليف بديع خيرى بعنوان "الليالى الملاح" وجاء فى الإعلان لأول مرة اسم الفنانة بديعة مصابنى كمشاركة فى هذا العمل المسرحى الكبير إلى جانب نجيب الريحانى.

وذكر نفس الإعلان أن الأوبريت من تلحين الموسيقار الشهير داود حسنى كما كان موضوعه مقتبساً من روايات ألف ليلة وليلة، وقد لعبت بديعة مصابنى فى هذه المسرحية دور "شمعة العز" إلى جانب الفنان الريحانى الذى لعب دور "نواس".

ثم تلا ذلك عدة مسرحيات هامة، شاركت فيها الست بديعة بنفس النجاح، وكان منها أوبريت "الشاطر حسن"، ثم مسرحية أو أوبريت "البرنس"

ـى عـام ١٩٢٤، وهـو العـام الـذى تـزوج فيـه نجيـب الريحـانى مـن ديعة مصابنى.

وفى الفترة من عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٣١، أقبلت بديعة على الحياة لفنية بكل ماتملك بعدما استقرت مرة أخرى فى مصر بعد رحلة رفيهية طويلة.

وبعد عام ١٩٢٧، بدأت بديعة مصابنى مرحلة جديدة من حياتها الفنية مثلت فى إقدامها على شراء الصالات الفنية والملاهى الليلية، وكان أول عهدها بهذا العمل هو شراؤها لصالة رقص بالإسكندرية، وكانت سمى "سنديكس".

ويبدو أن النجاح الذى صادف بديعة فى صالتها الأولى التى افتتحتها الاسكندرية، قد شجعها على المضى قدما فى نقل نشاطها إلى القاهرة، غزت شارع عماد الدين، حيث قررت شراء إحدى صالاتها الفنية فى هذا لشارع الشهير آنذاك.

* * *

ومن الأحداث التاريخية الهامة الأخرى والتى حضرتهابديعة فى بداية شوارها الفنى فى مصر فى هذه الفترة.. وفاة الزعيم سعد زغلول فى عام ١٩٢٧، وقد أثرت وفاة الزعيم على الحياة الفنية التى سادها فى ذلك الوقت سمى باسم "فن الفرنكوآراب".. والذى كان يعتمد على تقديم مسرحيات من صل واحد أو ذات ٣ فصول.. غير مترابطة.. كما ظهرت فى الفترة نفسها شخصية كشكش بيك وشخصيات فنية أخرى مثل "أم شولح ونبسون وزعرب الخواجة والشامى...".

وبدءًا من عام ١٩٣١ شهدت مصر عصراً من الديكتاتورية فى ظل حكومة صدقى باشا التى استندت إلى قوة الشرطة والجيش بهدف تقوية سلطات العرش، وقد تسبب ذلك فى وقوع نوع من الصدام الدائم بين الشعب بمختلف طبقاته وبين الحكومة وقد انتهت باستقالتها فى سبتمبر من عام ١٩٣٣.

وجاء من بعد وزارة صدقى باشا سلسلة متعاقبة من الرجال الأقل كفاءة،فى الوقت الذى أصبح فيه حزب الوفد قادراً على إثارة مشاعر الجماهير، وحثهم على المطالبة بإعادة دستور ١٩٢٣.

وقد إستمر هذا الوضع متأزماً حتى عام ١٩٣٥ حين تفجرت المظاهرات الطلابية لصالح حزب الوفد، وقد أكد المؤرخ البريطانى "بيتر مانسيفلد" فى أحد كتبه أن أحد زعماء الطلبة آنذاك.. هو جمال عبدالناصر الذى كان آنذاك فى المرحلة الثانوية وعمره ١٧ عاماً، ويؤكد هذا المؤرخ أن عبدالناصر أصيب بكشط فى جبهته من جراء رصاصة أطلقها أحد رجال الشرطة.

كما أسفرت تلك المظاهرات عن موافقة الملك فؤاد على إعادة دستور عام ١٩٢٣.. وذلك فى شهر ديسمبر من عام ١٩٣٥. ولكنه وبعد أربعة أشهر فقط، مات الملك فؤاد ثم جاء من بعده إلى عرش مصر ابنه فاروق الذى كان يبلغ من العمر آنذاك ١٦ عاماً فقط.

***

وخلال الأربع سنوات التى أعقبت عام ١٩٣١، تجلى التألق الفنى فى عودة نجيب الريحانى وزملائه من الفنانين من أمثال على الكسار، إلى عالم الكوميديا الراقية والهادفة سواء على خشبة المسرح أو فى السينما.

كما تجلى هذا التألق أيضا فى انتشار الصالات الفنية والملاهى سواء فى شارع عماد الدين أو فى ميدان الأوبرا أو على ضفاف نهر النيل.

ولم يأت ذلك فى حقيقة الأمر من فراغ، بل كان لنمو الوعى القومى المصرى أثره الفعال فى هذا التألق، الذى دفع بالدولة إلى العناية بالمسرح حيث رأت ضرورة أن يكون حصنا للثقافة الوطنية، وقد أثمرت تلك الجهود عن إنشاء المعهد العالى للتمثيل، ثم الفرقة القومية للفنون المسرحية فى عام ١٩٣٥.

ويدخل تاريخنا الوطنى منعطفاً جديداً مع بداية عام ١٩٣٧، عندما تولى الطفل "فاروق الأول" سلطاته الشرعية خلفاً لوالده الملك فؤاد، وقد تم فى الفترة الانتقالية مابين منتصف عام ١٩٣٦ وأوائل عام ١٩٣٧ حدثا سياسيا كان على جانب كبير من الأهمية، وهو التوقيع على معاهدة للتحالف الأنجلو المصرية فى عام ٢٦ أغسطس من عام ١٩٣٦، وقد انقسمت الأحزاب السياسية إلى فرق عديدة فى تقييمها لهذه الاتفاقية!.

ونظراً لموقف الملك فاروق المعارض لحزب الوفد وميله إلى جانب انجلترا فى هذه الفترة فقد حظى بإعجاب جموع الشعب المصرى لفترة لابأس بها، امتدت فى رأى بعض المؤرخين إلى ماقبل عام ١٩٤٢.

ورويداً رويداً دخل فاروق فى دوامة اهتماماته الخاصة، تاركاً الباب على مصراعيه لصراع الأحزاب.. فى الوقت الذى كان فيه المجتمع المصرى يعيش حالة من انعدام الوزن، ظهرت بوضوح فى نوع الفن الذى كان يقدم للناس وأماكن تقديم تلك الفنون التى انحسرت بشدة فى الصالات والملاهى الليلية التى لعبت دوراً كبيراً فى تقديم العديد من الفنانين والفنانات.

وهنا يبرز دور بديعة مصابنى من جديد على هذه الطريق.. إذ عرفت بحسها الفنى، أن الصالات والملاهى الليلية الفنية هى سبيل الثراء السريع وتقديم وجبات الفن عالية الجودة ورخيصة الثمن.

ومما ساهم فى تأكيد هذا المفهوم فى أذهان أصحاب الصلات الفنية التى كانت منتشرة فى شارع عماد الدين وفى غيره هو نشوب الحرب العالمية الثانية، التى حولت مصر إلى معسكر حربى كبير التقى فيه الجنود المشاركون فى هذه الحرب من دول الحلفاء والذين كانوا يجدون فى تلك الصالات الفنية ملاذهم فى قضاء الوقت، سواء من قبل الرحيل إلى الجبهة العسكرية أو من بعد الوصول منها.

ومن الأحداث السياسية الهامة الأخرى.. التى عاصرتها فنانة مصر بديعة مصابنى، من دون المشاركة فيها - بل بالعكس إستفادت منها - هو نشوب الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر من عام ١٩٣٨. والإعلان عن دخول مصر هذه الحرب إلى جانب بريطانيا ضد ألمانيا ودول المحور. وقد تم الإعلان عن هذه المشاركة فى ٢٤ فبراير من عام ١٩٤٥!. الأمر الذى كان من أخطر نتائجه وأسوأها الإقدام على اغتيال أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر على يد أحد الشبان المنتسبين لجماعة الإخوان المسلمين.

ووسط هذه الغيوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية التى خلفتها أحداث الحرب العالمية الثانية.. لم تغب بديعة عن الساحة الفنية، بل إجتهدت بكل ما كسبته من أموال من جنود الحلفاء فى تعديل أوضاعها الفنية وزيادة جرعة تواجدها فى عالم الصالات الفنية. وقد اختتمت بديعة تلك الجهود بافتتاحها صالة بديعة بميدان الأوبرا بوسط القاهرة، والمعروف الآن بكازينو "صفية حلمى"!.

ومن المصادفات التاريخية العجيبة أنه فى يوم افتتاح هذه الصالة الفنية الجديدة بميدان الأوبرا وقع حادث اغتيال أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر آنذاك على يد "محمود العيسوى" أحد أتباع جماعة الإخوان المسلمين وفق إجماع المؤرخين، وذلك عقاباً له على إعلانه المشاركة فى الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا!!.

وكان هذا الحادث من أخطر وأعظم الأحداث السياسية والتاريخية التى فرضت نفسها على بديعة مصابني، وأصابها بخسائر فادحة فيالها من مصادفة قاتلة لكل من الطرفين!!.

ورغم تأجيل افتتاح صالة بديعة على إثر هذا الحادث.. إلا أنها واصلت بعد ذلك مشوارها الفنى حتى نهايته.. عندما قررت الهروب من مصر، ونجحت فى تلك التجربة المثيرة فى عام ١٩٥٠!!.

ويبدو أن رحيل زوجها الفنان الكوميدى نجيب الريحانى فى عام ١٩٤٩ هو الذى أكد لديها فكرة الهروب من مصر، رغم ماكانت تردده من أن السبب الحقيقى هو تراكم الضرائب عليها إلى حد عجزها عن دفعها!!

وعن ظروف هذه الحادث وما تسبب فيه من مشاكل مالية فادحة للراقصة بديعة مصابني.. قالت فى مذكراتها : "عند إعلان الحرب العالمية الثانية، بدأت مرحلة جديدة فى حياة مصر الفنية، إذ كانت الجيوش البريطانية قد أقبلت عليها بكثرة، فانتعشت من جراء ذلك كل الملاهى، ولم نعد نتحمل من شدة الإقبال، فكانت صالتى تحفل كل ليلة بالضباط وبالعائلات المصرية الكبيرة بينما صالة "ببا عزالدين" تضيق بالجنود الذين كانوا يحطمون كل ماتقع عليه أيديهم..

وقبل أن تتدفق جيوش الحلفاء على مصر، كان شارع عماد الدين يمتاز بالهدوء والسكينة، وكان ملتقى محبى الطرب واللهو والمرح، إذ كان يجمع بين المسارح وصالات السينما والملاهى، ولكن ما إن أعلنت الحرب، وعرف الجنود طريق شارع الملاهى، حتى انقلبت الآية وتحول إلى ساحة حرب كلها ضوضاء ولم تعد العائلات المصرية تجرؤ على اقتحامه، حتى لاتلتقى بالسكارى والمعربدين.. ولم نعد ندرى كيف نتدبر أمرنا وسط هذا الزحام وتلك الفوضى؟!.

وفى أحد الأيام زارنى "مصطفى ومحمد جعفر بك" وأحضرا معهما مخططاً لبناء سينما ومسرح فى ميدان الأوبرا وعرضا على أن أتعاون معهما فرحبت بالفكرة".

ثم قالت بديعة عن حادث اغتيال أحمد ماهر باشا : فيما نحن نستعد لفتح أبواب كازينو الأوبرا بعد تجهيزه ، إذ برجال الشرطة يحضرون ليقولوا لنا إن ماهر باشا رئيس الوزراء قد اغتيل ولم يعد يليق بنا أن نقيم حفلة الافتتاح فى هذه الليلة بالذات.

ومن قبل الوقوف على تفاصيل هذا الحادث.. كان علينا أولاً معرفة بعض المعلومات الخاصة عن أحمد ماهر باشا ومن أهمها.. معرفة يوم ميلاده، حيث ولد فى عام ١٨٨٨... ووالده هو محمد ماهر باشا وكيل وزارة الحربية ومحافظ القاهرة بعد ذلك.

تخرج أحمد ماهر باشا من مدرسة الحقوق فى عام ١٩١٨، ونال درجة الدكتوراه من جامعة "مونبيليه" بفرنسا.. وعقب عودته من فرنسا عين استاذاً بمدرسة التجارة العليا – كلية التجارة الآن.

ثم اشتغل بالعمل الوطني.. حيث كان من أبرز قيادات الجهاز السرى فى ثورة ١٩١٩.. ومن الذين نظموا العمليات الفدائية ضد الموظفين الانجليز، واتُهم مع محمود فهمى النقراشى باغتيال السردار "لى ستاك" الحاكم العام للسودان فى عام ١٩٢٤.

وقد نجح المحامون الوطنيون فى تبرئة أحمد ماهر والنقراشى من هذا الاتهام، ومع ذلك ظلت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، كما يؤكد ذلك العديد من المؤرخين ترى فى أحمد ماهر واحداً من قادة الجناح المتطرف فى ثورة ١٩١٩.

وفى أعقاب إقالة حكومة النحاس باشا فى اكتوبر عام ١٩٤٤ استدعاه الملك فاروق وكان فى ذلك الوقت رئيساً للحزب السعدى ليشكل الوزارة كبداية لعهد طويل من حكومات الأقليات!" واستمرت حكومته الأولى حتى شهر يناير عام ١٩٤٥.. وبعد حل مجلس النواب أجريت الانتخابات البرلمانية الجديدة وحصل الحزب السعدى برئاسة أحمد ماهر على ١٢٥ مقعداً، مما أسفر عن إعادته تشكيل الحكومة الجديدة.

وفى هذه الفترة كما يؤكد ذلك المؤرخون، استجاب أحمد ماهر لطلب بريطانيا بإعلان الحرب على دول المحور، كوسيلة من الوسائل السياسية التى تخول لمصر حق حضور مؤتمر "سان فرانسيسكو" الذى سيكون له شرف تكوين هيئة الأمم المتحدة والذى عقد فى ٢٥ ابريل عام ١٩٤٥.

ولم يمر سوى شهر واحد على تولى أحمد ماهر منصبه الجديد كرئيس لوزراء مصر للمرة الثانية حتى تم اغتياله فى شهر فبراير من العام نفسه.

وكان الدكتور أحمد ماهر قد طلب في يوم إغتياله جميع الوزراء أن يشاركوه غذاءه هذا اليوم في مجلس الوزراء، وفى منتصف الساعة الخامسة انصرف رئيس الوزراء، قاصداً داره بحدائق القبة.

هذه الدار تحولت الآن إلى مدرسة ابتدائية بإسمه.. كما تحول جزء آخر من فيلته هذه إلى مقر دائم الآن أيضا لإدارة حدائق القبة التعليمية.

وهناك أبدل ملابسه الرسمية ثم توجه بعد ذلك إلى مجلس النواب.

واعتلى أحمد ماهر المنبر وظل يتحدث لمدة ساعة كاملة عن موضوع إعلان الحرب.. وكان كما قالت جريدة الأهرام آنذاك متئداً فى إلقاء كلمته متزناً فى إشاراته ولفتاته، كما كانت تبدو عليه مظاهر الصحة والنشاط، فلما انتهى من إلقاء كلمته جلس فى مكانه بجوار مكرم عبيد ودوى التصفيق يملأ أذنيه.

بعد ذلك حاول أحمد ماهر أن يغادر قاعة المجلس، ولكن الأديب فكرى أباظة كان قد بدأ كلمته في المجلس فاضطر أحمد ماهر إلى الانتظار، وقد جلس فى صفوف المعارضة بجوار دولة صدقى باشا لحظة قصيرة.

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء إلا دقائق قليلة ولم يكن فكرى أباظة قد أتم كلامه بعد ، فترك أحمد ماهر قاعة المجلس متوجها إلى مجلس الشيوخ ، وقد سلك الطريق الموصل إلى المجلس وهو البهو الفرعونى الذى كان خاليا إلا من حرس البرلمان وبعض المصورين وأربعة من الشباب الذين جلسوا إلى إحدى الموائد.

وفى تمام الساعة السابعة وأربعين دقيقة من مساء السبت ٢٤ فبراير من عام ١٩٤٥ ، وحين كان أحمد ماهر فى طريقه تجاه البهو الفرعونى

تقدم إليه "محمود العيسوى" ، ولما كان على بعد عشرين سنتيمترا من الفقيد أطلق عليه أربع رصاصات سقط على إثرها على الأرض غارقا في دمائه ، فتم نقله إلى غرفة الاسعاف بالمجلس وتولى عملية إسعافه أولا الدكتور حلمى الجيار ثم إنضم إليه بسرعة الدكاترة على باشا ابراهيم ومسيو رينيه والدكتور عبد الله الكاتب ومحمود مراد سامى والمنياوى باشا.. ولم تفلح هذه الإسعافات فمات بعد نصف ساعة من وقوع الحادث !

***

ولقد مر علينا من قبل كيف تسبب حادث الاغتيال فى تأخير افتتاح كازينو بديعة بالأوبرا يوما كاملا.. وقد تصورت صاحبته أن الأمر قد توقف عند هذا الحد.. وقد كانت فى غاية الاشتياق لإفتتاح هذا الصرح الفنى الكبير الذى كلفها أموالاً طائلة.. ولكن امتد تأثير هذا الحادث إلى اليوم الثانى والأيام التالية.. ولندع بديعة مصابنى تحكى لنا ماجرى بعد يوم حادث الاغتيال :

قالت بديعة : "وفى اليوم الثانى مر موكب الجنازة فى ميدان الأوبرا من أمام الكازينو، وهجمت الجماهير واحتلت كل المقاعد بالقوة. حاولت أن أمنع البعض من القفز فوق الطاولات والمقاعد.. لكن لم أتمكن من ذلك إلا بطريقة واحدة. حيث فرضت تعريفة دخول وقدمت تذاكر بنصف ريال.. وهكذا تخلصت من أغلب المشاغبين وعوضت أرباح ليلة الافتتاح دون أن أتكلف أى شئ!!.

وفى الصباح أخذت القاهرة رغم حزنها على رحيل رئيس الوزراء تردد حديث كازينو بديعة فى ميدان الأوبرا، كما أخذت بديعة نفسها فى الحديث بشوق وود لكل أصدقائها عن ذلك المكان وعن أقسامه والمادة الفنية التى كانت تقدمها دائما فى كازينو أوبرا.

(٨) إمتثال فوزى



بمصرعها .. انتهى

عصر الفتوات !

شهد تاريخنا الوطنى خلال فترة الأربعينيات حادثين هامين، كان لهما الفضل الأكبر فى القضاء وبشكل نهائى على "عصر الفتوات" وكان لأهل الفن أيضا دور كبير فى ذلك!.

وهناك من المؤرخين والصحفيين الذين ذهبوا إلى أبعد من ذلك.. حيث رأوا أن هذين الحادثين كان لهما أيضاً أكبر الأثر فى القضاء على الامتيازات الأجنبية فى الفترة نفسها.

ولاشك أن إلقاء الأضواء المبهرة على هذين الحادثين بالتفصيل الواجب.. وكذلك الإشارة إلى هاتين الفنانتين اللتين كانتّا طرفاً فى هذين الحادثين سوف يبصرنا أكثر بما لانعرفه عن عصر الفتوات.. والأساليب التى اتبعوها من أجل فرض الإتاوات وسيادة البلطجة بدون وجه حق..

والطريف أن مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر فى هذه الفترة كان يتابع التحقيقات الجنائية فيما ارتكبه أحد هؤلاء الفتوات فى حق الفن والفنانين! وهو أيضا الذى أصدر قراره التاريخى بإنهاء عصر الفتوات، بعدما تحولوا إلى عصابات لاهم لها سوى النهب والسلب والقتل!.

ولكى لانظلم الفتوات وعصرهم.. نود أن نشير إلى أن هذه الفئة التى كانت مشهورة فى يوم ما داخل مجتمعنا.. كان لها دور كبير فى بعث الروح الوطنية والوقوف خلف الزعماء.. وقد أشار إلى هذا الدور العديد من مؤرخينا أيضا.. وبالتالى سوف يكون لزاماً علينا أن نسوق أيضاً بعض تلك المواقف المشرفة من أجل أن تعرف أجيالنا الجديدة.. كيف كان الإنسان المصرى البسيط يتفنن فى اختراع الطرق والوسائل والأساليب التى تمكنه من خدمة وطنه.. وفى أى موقع كان يتواجد فيه مهما كلفه ذلك من مشاق!.

الحادث الأول. وهو مقتل الراقصة "امتثال فوزى".. وشهده ملهى البوسفور الذى كان يوجد بميدان محطة مصر "رمسيس" الآن، وقد ارتكبت هذه الجريمة القاسية عصابة فؤاد الشامى التى كانت قد أنذرت الراقصة امتثال فوزى التى تعمل فى كازينو البوسفور، وتمتلكه الفنانة "مارى منصور" بأنها إذ لم تدفع الإتاوة المقررة على كل أهل الفن، فسوف ينتقم منها.. فما كان من امتثال فوزى إلا القيام بإبلاغ البوليس بهذا التهديد وأيضاً بأسماء الأشخاص الذين هددوها.

وكان الفتوة فؤاد الشامى الذى سيطر برجاله على شارع عماد الدين مشغولاً ورجاله ببعض العمليات التى كانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة.. ولذلك فقد تركوا الراقصة الجديدة امتثال فوزى فى بادئ الأمر تدفع الإتاوة لغيرهم من الفتوات!.

ولكن حين وصل إلى مسامع هذا الفتوة صيت امتثال فوزى وجمالها وثروتها ونفوذها.. بدأ التحرش بها هو ورجاله.. وجعل يطالبها كغيرها بأن تدفع له ولهؤلاء الفتوات نظير حمايتها..

ولم تكن الراقصة امتثال فوزى فى واقع الأمر وكما شهد بذلك كل زملائها تذعن لرغبات هؤلاء الفتوات، وبالتالى رفضت وبإصرار أن تدفع لهم، وكانت بذلك تعتمد فى حمايتها وحماية نفسها على بعض الشخصيات السياسية وبعض الشخصيات التى كانت تنعم بالحماية فى ظل الامتيازات الأجنبية!.

وتقول بقية الحكاية أنه فى إحدى المرات ذهب إليها مندوبو الفتوة فؤاد الشامى من أجل إبلاغها أن تأتى وتجلس مع الزعيم فرفضت، ومضت بعد

انتهاء رقصهتا إلى حجرتها الخاصة بالملهى، وذهل فؤاد الشامى نفسه، ذلك لأن بديعة مصابنى ملكة الملاهى الليلية كانت تلاطفه وتدفع له!.

عندئذ أمر رجاله بابتزاز الراقصة امتثال فوزى بالقوة بعد مارفضت أكثر من مرة طلب حمايتهم لها.. مقابل أن تدفع ٥٠ جنيها شهرياً!.. وإلا!!.

ورفضت امتثال فوزى هذا الطلب أيضا..، فعرف فؤاد الشامى أنها بذلك تستهين به أمام رجاله..، وأن البوليس سوف يحميها. وقد أصبح موقفه إزاء ذلك فى منتهى السوء.. ولم يكن أمامه سوى طريقين إما أن يخضع هو لامتثال فوزى، أو يظهر روح الشجاعة والقوة أمام رجاله!، وكان الحل الثانى هو المطلوب، خوفاً من ضياع هيبته أمام هؤلاء الفتوات!.

ومما زاد موقف الفتوة فؤاد الشامى سوءاً، أن رجاله أبلغوه أن بقية راقصات وفنانى شارع عماد الدين بدأن فى الامتناع عن دفع الإتاوات أسوة بامتثال فوزى!..

من هنا قرر فؤاد الشامى أن يحسم الخلاف لصالحه.. فقرر أن تُقتل إمتثال فوزى فوراً، وبالفعل سلط عليها أحد صبيانه ويدعى "كامل الحريرى" الذى جرى وراءها خلف المسرح وغرز فى عنقها زجاجة مكسورة فاندفع الدم من عنقها كالنافورة وماتت فى الحال!.

ويؤكد العديد من المؤرخين من أهل الفن أن هذا الحادث المروع قد وقع فى الساعة العاشرة من مساء يوم الجمعة الموافق ٢٢ مايو عام ١٩٣٦.

وبعد ارتكاب الحريرى حادث القتل إنقض عليه رواد الملهى فأشبعوه ضرباً وركلاً.. ثم قادوه إلى قسم الأزبكية.. وهناك إعترف بقتله لإمتثال

فوزى تنفيذاً لأوامر المعلم فؤاد الشامى. وتمت محاكمة فؤاد الشامى وعصابته. وظل مسجوناً على ذمة هذه القضية حتى عام ١٩٥٧!.

***

وعلى اثر إعلان الصحف عن تفاصيل مقتل الراقصة امتثال فوزى،، قامت الدنيا ولم تقعد حتى قرر مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر آنذاك ووزير الداخلية بانتداب اثنين من كبار موظفى الداخلية ليشهدا هذا التحقيق، ثم يقدمان إليه تقريرا وافيا وشاملاً يحددان فيه مسئولية رجال البوليس حتى يقرر هو فى ضوء هذا التقرير مافيه صيانة للأرواح وإنهاء لعصر الفتوات!.

وأما "محمود المرجوشى" النائب العام فى ذلك الوقت، فقد كتب إلى المسئولين عن التحقيق يطلب إليهم التعجيل بإنهائه حتى يتسنى له تقديم المتهمين إلى قاضى الإحالة قبل نهاية شهر مايو!.. وقد طالبت كل صحف هذه الأيام بالعمل على إنهاء عصر الفتوات!.

والحكاية عند هذا الحد لم تنته بعد.. فقد هزت أحداثها كل أركان المجتمع المصرى.. كما إنشغلت بها الصحف طوال عام ١٩٣٦. ولم يلههم عنها سوى حادث تاريخى هام وهو توقيع اتفاقية أو معاهدة ١٩٣٦ بين كل من مصر وانجلترا!!. كأول تعاون رسمى بين الحكومتين المصرية والبريطانية فى المجال العسكرى.

ولقد رأينا من قبل استكمال بقية الحكاية - ومتابعة ردود أفعالها فى الشارع المصرى وداخل قصر الدوبارة ولدى المسئولين والوزراء - ضرورة أن نقف على بعض المعلومات عن هذه الراقصة.. التى لم تأخذ حظها من الشهرة والنجومية إلا على يد الفتوة فؤاد الشامى!.

لقد كانت الراقصة الشهيرة امتثال فوزى فى بداية حياتها.. فتاة فقيرة تخدم فى بيت أسرة يونانية بمدينة الإسكندرية.. وبعض من كانوا يعجبون بجمالها فى الحى الذى تقيم فيه هذه الأسرة يقولون إنها خادمة فى هذا البيت والبعض الآخر كان يقول بل إنها تتدرب على أعمال الخياطة لدى زوجة صاحب البيت الرجل اليونانى المعروف، والتى كانت من أشهر الخياطات بمدينة الإسكندرية.

لكن الحقيقة. وفق ما اكده أكثر من مصدر أن الفتاة امتثال ظلت فى هذا البيت تخدم به.. وتعلمت على يد صاحبته الخياطة أيضا. كما تعلمت فى الوقت نفسه اللغة اليونانية حتى كان يظن كل من كان يسمعها تتحدث اليونانية بأنها من بنات أثينا، وليست من بنات الإسكندرية.

وكانت امتثال صبية وحيدة.. عاشت بعيداً عن أمها.. وكانت شديدة الطموح، فلم تقتنع بالمهنة التى تعلمتها.. بل وبدأت تتطلع إلى الثراء والحياة المترفة، وكان الخواجة اليونانى الذى كانت تعمل فى منزله كثير الكلام خاصة أمام هذه الطفلة عن مقهى بالاسكندرية اسمه "مقهى الغزاوى" هذا المقهى كان يتلقف الراقصات الناشئات فتبقى فيه الفتاة حتى يلمع إسمها وترتفع أسهمها.. ثم تتركه إلى الملاهى الفاخرة فى القاهرة أو فى الإسكندرية ذاتها.

وذات مساء بحثت الأسرة اليونانية عن ربيبتها المصرية الجميلة فلم تجدها.. وانتظرتها الأسرة للعودة حتى بعد منتصف الليل، ولكنها أيضا لم تعد.. وفى الصباح أبلغ الخواجة قسم البوليس عن اختفائها.. وبعد أيام تم استدعاء الخواجة اليونانى لكى يبلغه البوليس بأنهم عثروا على الفتاة امتثال فى "مقهى الغزاوى"!.

وفى مقهى الغزاوى قضت امتثال فوزى فترة قصيرة تدربت خلالها على حياة الملاهى والصالات الفنية.. كما عرفت خلال المدة نفسها الكثير من أسرار ذلك الجو الذى كان يحيط بتلك الحياة الصاخبة!.

وقد طبقت شهرة امتثال آفاق كل مدينة الاسكندرية، فخرجت عن نطاق مقهى الغزاوى.. كما وصل صيتها إلى مسامع أصحاب الملاهى الكبيرة فى مدينة القاهرة، خاصة فى شارع عماد الدين، وكانت بديعة مصابنى فى مقدمة الذين سعوا لاستقدامها إلى القاهرة للعمل معها فى كازينو بديعة.

وقد رحلت بديعة مصابنى بنفسها إلى مدينة الاسكندرية من أجل إحضار امتثال فوزى.. وهناك وقعت معها عقد احتكار نظير مبلغ كبير من المال!.

وفى القاهرة تجددت مواهب هذه الفنانة سواء فى الرقص أو فى الغناء!. حيث لاقت مزيداً من النجاح والشهرة.. وفى أوائل الثلاثينيات كانت امتثال فوزى قد بلغت أقصى شهرتها.. حيث لم تعد مجرد تلميذة فى مدرسة بديعة، بل وأصبحت نجمة مشهورة.. عندئذ تركت العمل فى كازينو بديعة وشاركت زميلتها الفنانة "مارى منصور" فى إدارة صالة فنية جديدة وهى التى عرفت باسم "مسرح البسفور" و هو المسرح الذى قتلت فيه هذه الفنانة على يد عصابة فؤاد الشامى!.

وكما سبق وذكرنا كان لهذه الجريمة ردود أفعال واسعة على المستويين الرسمى والشعبى.. وكانت الصحف الصادرة آنذاك وراء تشديد الحملة على عصر الفتوات وضرورة الخلاص منهم!.

ومما قالته الصحف بعد أربعة أيام من وقوع تلك الجريمة : أن الصحفيين الذين سئلوا فى التحقيق هم أجرأ الشهود، وأطلقهم لساناً فى

الإفصاح عن كل شئ، وقد سئل مندوبو الصحف : "إيجبت والسياسة واللطائف المصورة والعروسة، وقد تعرف مصور دار الهلال على كامل الحريرى وهو الذى اعتدى على الراقصة."

هذا عن موقف الصحفيين.. أما سائر الشهود فإنهم تملكتهم عقيدة واحدة، وهى أن التصريح منهم باعتراف كامل يقولون فيه كل مايعرفون، لن ينجيهم من يد الفتوات الذين يتمتعون بسلطات لم يستطع رجال البوليس التغلب عليها لأنهم تركوا هؤلاء الفتوات يستفحل أمرهم ويمتد نفوذهم.

كما أشارت جريدة روزاليوسف اليومية الصادرة فى ١٩٣٦/٥/٢٦ إلى أن الممثلة مارى منصور صاحبة الصالة التى قتلت فيها امتثال فوزى أخذت تتردد فى أداء شهادتها قائلة إن الذى يدفعها إليه هو خوفها من الفتوات، بل وقد زادت على ذلك تأكيدها بأنها هى الأخرى أخذت تستعد لأنها كما تقول "ميته ميته".

وواصلت "روزاليوسف" حملتها على الفتوات بقولها إن رجال البوليس قد اعتقلوا فى الأمس جماعة من الفتوات، ونحن نرى أن الأسلوب الذى يلجأون إليه فى إجراءات القبض هو أسلوب شاذ لأننا علمنا أنهم يتوجهون إلى الصالات ثم يسألون أصحابها وصاحباتها عن الفتوات.

ومن المحقق أن إرشاد أصحاب الصالات وصاحباتها عن الفتوات أمر عسير، لأنهم يخشون العاقبة التى يدل على خطورتها مصرع امتثال فوزى!.

ورجال البوليس متى حسنت وسائلهم استطاعوا أن يضعوا أيديهم على مايريدون دون أن يلجأوا إلى هذا الأسلوب الشاذ.

والعجيب والقاتل – كامل الحريرى – معترف الآن بجريمته اعترافاً كاملاً.. لقد قال إن فؤاد الشامى ومختار الشامى قد حضرا إليه فى منزله، واستدعياه إلى وليمة شربوا فيها الزبيب ثم حرضاه على ارتكاب الجريمة.

* * *

وفيما يخص ردود أفعال رجال البوليس الذين وجهت إليهم انتقادات شديدة لتهاونهم مع هؤلاء الفتوات.. فقد بدأوا فى الاستماع إلى أقوال كل من رتيبة وأنصاف رشدى وعلية فوزى، وحياة صبرى ويوسف عزالدين أفندى "الممثل" وأنطون أفندى عيسى ابن أخت بديعة مصابنى.

وقد قرروا جميعاً أنهم كانوا يعطون الشامى وعصابته أموالاً كانت تسمى عندهم بالمصروفات السرية، وقال أحد هؤلاء الشهود إن هذه العصابة قد اختطفت تحية الراقصة بالقوة وأجبرتها على ركوب سيارة بعد أن كمموا فمها ثم أطلقوا سراحها فى صباح اليوم التالى!.

وبعد أن تم عرض تقرير سريع عن القضية على دولة رئيس الوزراء صرح أحد كبار موظفى الداخلية بأن الوزارة تترقب خطوات التحقيق حتى يمكن وضع تشريع جديد، يسد النقص الموجود الآن فى بعض القوانين بما يقضى على هؤلاء الفتوات.

وكانت أخبار جريمة مصرع الراقصة امتثال تتصدر الصفحات الأولى فى كل الصحف المصرية، التى نشرت أن التحقيق أثبت أن هؤلاء الفتوات لم يكونوا فتوات صالات وحسب، ولكنهم كانوا فتوات انتخابات أيضاً.

كما أن مهنة "الفتونة".. لم تكن مقصورة على المصريين.. بل كثير من الأجانب كانوا يحترفون تلك المهنة، وكانت الامتيازات الأجنبية

المفروضة على البلاد وقتئذ تحمى هؤلاء الفتوات الأجانب من الوقـوع تحت طائلة القانون.

وقد رأت الحكومة بعد أن كثر عدد الفتوات الأجانب الذين يباشرون أعمالهم فى الملاهى الأجنبية المنتشرة فى العاصمة اتخاذ الإجراءات اللازمة لإبعاد هؤلاء الفتوات الأجانب عن البلاد!.

والطريف أنه كان لهؤلاء الفتوات كما صرحت بذلك صحف هذه الفترة تسعيرة محددة فتحطيم المنزل بـ ٥٠ قرشاً، وإحداث إصابة بمن يراد إصابته بجنيه واحد!. وإصابة من يراد النيل منه بعاهة مستديمة عشرة جنيهات، أما التهديد الشفهى أو الكتابى فلم يكن يزيد سعره على ١٥٠ قرشاً. هذا عدا المصاريف التى تشمل أتعاب المحامى الذى يوكل للدفاع عن الجانى والإنفاق عليه طوال مدة سجنه!!.

وكانت الأحياء المزدحمة بالفتوات هى أحياء السيدة زينب والدرب الأحمر والجمالية وبولاق والمناصرة وشارع كلوت بك وعماد الدين كما كان لكل فتوة منطقة نفوذ لايتعداها ولايزاحمه فيها أحد غيره!.

* * *

وجاء الحادث الثانى الذى ألهب مشاعر الناس وعجل بالقضاء على هؤلاء الفتوات.. بوضع تشريعات قانونية غليظة للحد من أعمالهم العدوانية.

والغريب أن الجناية الثانية التى ارتكبها هؤلاء الفتوات كان القصد منها كما صرحت بذلك صحف هذه الأيام هو التعمية على الجريمة الأولى.. ومانود التأكيد عليه فى هذه السياق. أنه لولا إرتكاب هؤلاء الفتوات جريمة فى حق فنانة مشهورة مثل امتثال فوزى.. لتأخرت الإجراءات التى صدرت

للحد منهم ومن نشاطهم.. الأمر الذى أدى إلى تقلص أعدادهم واختفائهم تماماً من الشارع المصرى وبشكل نهائى.

ففى شهر مايو من عام ١٩٣٦ وبعد مرور أيام فقط على مصرع امتثال فوزى وبأيدى بعض أفراد عصابة فؤاد الشامى من الذين لم تصل إليهم أيدى البوليس قاموا بقتل راقصة أخرى اسمها سكينة والشهيرة بالراقصة "عيوشة".

وهذه الراقصة كانت تعمل بصالة بديعة مصابنى وقد وقع فى حبها شاب من أصحاب شركات السجائر، وأنفق فى سبيلها مبالغ طائلة، ولكن عيوشة كانت قد كرهت الجو الفنى الذى كانت تعيش فيه، وكانت تتمنى أن تعتزل من الرقص بأية طريقة.

ولم يكد الشاب الذى كان يدعى "داود" يطلب منها الزواج حتى رحبت وإنتقلت إلى بيت فيه حياة عائلية هادئة ولكن القدر كان يبتسم لها فى هزء كما قالت ذلك صحف هذه الأيام وظل هذا القدر يطاردها حتى طُلقت من زوجها داود.. فتزوجت من شاب غيره اتضح أنه كان من العاطلين وكان آنذاك لايزال فى السنة الأولى من مدرسة التجارة المتوسطة، وقد احترف العيش عالة عليها.. وتفشل عيوشة فى زواجها الثانى. بعدها يبدأ الصراع بين الزوجين لإرجاعها كل إلى عصمته.

ولم يكن أمام أحدهما من طريق سوى الاستعانه بالفتوات لإرهابها، وإعادتها إلى عصمته بالقوة!. وتقع جناية القتل حين سمع أحد الجيران صوت عيوشة تصيح : "إلحقونى جمال هيموتنى" وإقتحم الجيران بالفعل الغرفة التى كانت تقيم بها فوجدوها جثة هامدة والدماء تنفجر بغزارة من جميع أجزاء جسمها، ووجدوا الفتوة ممسكاً بسكين وقد استعملها فى ارتكاب جريمته.

وفى التحقيق اتضح أن اسمه "جمال الدين حسين" وأنه كان يفرض إرادته عليها بالقوة.. كما كان يحرص عن طريق زملائه الفتوات أن توافيه كل ليلة بمبلغ كبير من المال، وكانت عندما تتهاون فى جمع المال ينهال عليها بالضرب المبرح.

* * *

وكما سبق وذكرنا من قبل فإن عصر الفتوات لم يكن كله شراً.. بل كان خيراً فى بعض أموره وأحواله.. خاصة مع بداية ظهور هؤلاء الفتوات والتى أجمع المؤرخون على أن البداية كانت مع وصول الحملة الفرنسية إلى مصر وهروب المماليك وتحرك الشعب ليقاوم الاحتلال وحده.

ووسط الثورات المتعددة خاصة التى نشبت فى مدينة القاهرة تحرك الزعماء يقودون الناس ومن خلفهم ومن أمامهم هؤلاء الذين أطلقنا عليه اسم "الفتوات".

والكاتب الصحفى الراحل الأستاذ محمد فهمى عبداللطيف يحدثنا بالتفصيل عن هؤلاء الفتوات فيقول: فى مصر كان الفتوات الذين نعرفهم ولاتزال منهم أشباح ماثلة إلى اليوم.. كان لكل حى فى القاهرة فتوة، فكان هناك فتوة الجمالية وفتوة الناصرية وفتوة بولاق.. أما الحسينية فكانت هى مقر الفتوات ومأواهم!.

وفى الاسكندرية يسمون الفتوة "أبوالحمد" أو "أبوالأحمدات".. وهى تسمية لانعرف السبب فيها.. ولعلها ترجع إلى فتوة كبير كان يحمل هذا الاسم.. وقد كان لهؤلاء الفتوات دولة وصولة، وكانوا حكومة من داخل حكومة، كما يقولون فى العصر الحديث.

وكان لكل فتوة من هؤلاء عزوة.. كان يعتز بصولته وبقوته وكان صاحب السيطرة الكبرى على كل من كانوا حوله.. ولهذا كان يتنادى فتوات الأحياء للمبارزة ، فيخرج فتوة الجمالية وأتباعه مثلاً لمنازلة فتوة الناصرية وأتباعه.. وهكذا.. يتبارزون فى معركة يسقط فيها قتلى وجرحى وهم يعلنون هذا النصر على الملأ.

ويؤكد المرحوم الكاتب الصحفى "فهمى عبداللطيف" فيما ذكره عن هؤلاء الفتوات أنه يبدو أن هؤلاء القوم قد أخذوا هذا التقليد من فرسان المماليك فى أيامهم الأخيرة عندما انقسموا إلى شيع وأحزاب.

وكانت لهؤلاء الفتوات أيضا إلى جانب البلطجة بعض المحامد والمكارم إذ كانوا يجيرون الضعيف اذا احتمى بهم وانتصفوا للمظلوم.. مما جعل لهؤلاء الفتوات مكانة فى المجتمع، خاصة فى عصر كثرت فيه المظالم.. كما كان هؤلاء أيضا فى طليعة المدافعين عن حقوق الناس وحمايتهم خاصة فى المهمات القومية والوطنية الخطيرة.

(٩) تحية كاريوكا



الراقصة التى أخفت
السادات عن عيون الإنجليز

مجموعة كبيرة من جلائل الأعمال الوطنية والتاريخية التى شهدتها وعاصرتها.. بل وساهمت فيها فنانة قديرة مثل تحية كاريوكا... جعلتها بحق من أوائل أهل الفن من الذين وقفوا فى صفوف رواة وكتبة تاريخ مصر الحديث!.

هذه الفنانة الراقصة التى اقتحمت عالم الرقص الشرقى.. والذى قادها إلى عالم التمثيل السينمائى والمسرحى.. كان بداخلها هموم كثيرة.. وأحاسيس وطنية فياضة جعلت منها خير مشارك للعديد من الأحداث السياسية الساخنة.. وكان آخرها ذلك الموقف المعاند الذى وقفته ضد بعض تصرفات رجال الثورة وضد أسلوب الديكتاتورية الذى اختاروه فى بداية مشوارهم الثورى والتاريخى!.

والمتابع المدقق لمشوار حياة تحية كاريوكا أو "بدوية محمد أبوالعلا" سوف يكتشف أن كم الإحاسيس الوطنية التى ترسبت بداخلها - سواء من جراء ما عايشته داخل بيئتها الأولى بمدينة الاسماعيلية أو ماعاصرته من أحداث بحكم موقعها المتقدم فوق خريطة المجتمع المصرى لأكثر من ٤٠ عاماً. - كان له اليد العليا فى توجيه تلك الأحاسيس لخدمة بلدها. وإن امتزجت كل أعمالها الوطنية والسياسية أولاً بالفن ثم بالسياسة.. مثلها فى ذلك مثل معظم الفنانين والفنانات المصريات من الذين رأوا وعاصروا أوكتبوا بدموعهم وبدمائهم سطوراً عريضة عن تاريخ مصر الوطنى.

ومن أجل تحقيق نوع من الأمانة العلمية في رواية ماسوف نتلوه بعد لحظات عن ملامح مشاركة هذه الفنانة.. كان لابد لنا من الاعتماد على ماذكرته الفنانة تحية نفسها سواء فى أوراقها الخاصة أو فى كل ما أدلت به من أحاديث صحفية. وكذلك الاعتماد على ماكتبه عنها النقاد والمؤرخون.

يقول علماء النفس والاجتماع إن الإنسان وليد بيئتة يتأثر بها وتؤثر في مكوناته.. وهو كذلك يؤثر فيها أيضا.. والفنانة القديرة "تحية كاريوكا" من الفنانين المصريين الأوائل الذين تنطبق عليهم تلك الرؤية العلمية البحتة.. فقد عاشت وترعرعت فى منطقة قناة السويس.. هذه المنطقة التى شهدت أحداثاً سياسية ووطنية وتاريخية ساخنة، ارتبطت إلى حد بعيد بالتواجد الأجنبى على أرض مصر. وكان لابد لهذه الأحداث من تأثير إيجابى وقوى على أحاسيس وسلوكيات فنانة كبيرة مثل تحية كاريوكا.. وإن ظل رد فعلها تجاه ذلك متوارياً بعض السنوات.. حتى جاءت اللحظة التى عبرت عنه وبصدق.. سواء من خلال مشاركتها العامة فى قضايانا الوطنية أو فى التعبير عن ذلك فى معظم أعمالها الفنية والمسرحية على وجه الخصوص!.

لقد ولدت الطفلة "بدوية" بمدينة الاسماعيلية وعاشت بها حتى بلغت الرابعة عشرة من عمرها.. ثم تركت هذه المدينة والتى كانت مقرا أساسيا لقوات الاحتلال البريطانى إلى القاهرة لتبدأ مشوارها الفنى الطويل.

ولم يكن من الضرورى أن يظهر تأثير تلك البيئة وما حملته من مشاعل وطنية داخل نفس هذه الفنانة وكما ذكرنا بين يوم وليلة، ذلك لأنها عاشت فى بداية حياتها فى ظروف اجتماعية قاسية صرفتها عن التفكير فى الانخراط فى طريق المساهمات الوطنية مثل بقية أبناء منطقة القناة!.

والدليل لدينا على ذلك أنه بمجرد أن واتتها الفرصة بعدما أصبحت فى وضع اجتماعى يسمح لها بذلك.. لم تتأخر.. بل بالعكس كانت تسارع من تلقاء نفسها من أجل بلورة دورها داخل الأحداث التاريخية والوطنية التى شهدها تاريخ مصر الحديث.

كما تبلورت أهم أدوارها الوطنية أيضا فى الارتباط بالعديد من الشخصيات المصرية التى لعبت هى الأخرى دوراً كبيراً فى تاريخ مصر الحديث، أضف إلى ذلك إحساسها السياسى المبكر الذى دفعها إلى الأمام وهى مازالت تخطو فى الحياة الفنية خطواتها الأولى.

بل وأكثر من ذلك كان إحساسها الوطنى المبكر هو دافعها الحقيقى نحو تألقها فوق خشبة المسرح، عندما اختارت المسرح السياسى بالذات طريقاً لكى تفرغ فوق خشبته تلك الشحنة الوطنية المتأججة بداخلها.

وكان من أهم المواقف الوطنية التى عاصرتها الفنانة "بدوية أبوالعلا" من قبل دخولها عالم الفن هو الموقف الذى يضاف إلى تلك المؤثرات القوية فى مجال انعكاس إحساسها القومى.. حيث عاشت هذه الصبية وسط عائلة كان رجالها من الوطنيين الشرفاء وكان أحد أعمامها قد تم الحكم عليه بالشنق على أيدى الإنجليز عقاباً على مواقفه الوطنية تجاه أبناء بلده من أهالى الإسماعيلية حيث كانت آنذاك المقر الرئيسى لقوات الاحتلال البريطانى.

كما كان والدها يشتغل فى البحر، وكانت لديه العديد من المراكب العاملة فى قناة السويس، وكان كذلك من المصريين الوطنيين الذين لم يبخلوا فى كفاحهم من أجل الحركة الوطنية والعمل على التخلص من الإنجليز.

ولنبدأ حكاية تحية كاريوكا مع الحياة ومع الفن.. وكذلك مع الأعمال السياسية والوطنية، من حيث أرادت هى، كما سجلت وقائعها فى العديد من لقاءاتها وأحاديثها الصحفية.

وفيما ذكرته هذه الفنانة عن مشوار حياتها قولها "لن أكون مبالغة إذا قلت إن قصة حياتى تصلح قصة سينمائية غريبة الحوادث كثيرة المفاجآت، قصة لاينقصها شيء من مقومات القصة الكاملة"

والمعلومات التى سوف نركز عليها فيما يخص هذه الفنانة القديرة هى بعض لمحات من سطورها وحياتها منذ مولدها وحتى وصولها إلى قاعدة الفن العريض!.

ولدت "بدوية أبوالعلا".. فى مدينة الاسماعيلية فى ١٩ فبراير ١٩٢٢.. وكان والدها من رجال البحر حيث كان يمتلك أسطولاً من المراكب الشراعية تروح وتغدو فى قناة السويس حاملة كل ماتحتاجه البواخر الكبيرة وتنتقل بين موانئ البحر الأحمر بالبضائع والسلع.

ولما توفى والدها ترك ٤ زوجات.. وكان ترتيب بدوية رقم ١٧، وكانت وحيدة أمها.. وفى ضوء المضايقات التى عاصرتها الطفلة بدوية وأمها سارعت بالهرب من مدينة الإسماعيلية واختارت مدينة القاهرة للإقامة فيها بدءاً من عام ١٩٣٥ ولم يكن عمرها آنذاك قد تعدى أربعة عشر عاماً فقط!. وكانت الفنانة "سعاد محاسن" من أوائل الذين أخذوا بيد "بدوية" للعمل فى مجال الفن.

وفى العام الذى وفدت فيه تحية كاريوكا إلى مدينة القاهرة، شهدت هذه المدينة عدة أحداث وطنية ساخنة، حيث كانت شوارع القاهرة تضج بالمظاهرات الصاخبة ضد قوات الاحتلال على إثر فشل مفاوضات الجلاء.

وتقول تحية كاريوكا عن بداية مشوارها الفنى : "وقضيت فى العمل الفنى أربع سنوات استطعت خلالها أن أنتقل من ممثلة صغيرة فى فرقة سعاد محاسن إلى راقصة لامعة بفرقة "بيا عزالدين" و"بديعة مصابنى".

ومضت بى الحياة فى أيام متوالية، وأنا أسطر كل يوم منها سطراً جديداً فى سبيل شهرتى ومجدى كراقصة حتى أراد الله أن أتبوأ هذه المنزلة بين نجوم الفن وأصبح "تحية كاريوكا"..".

أما الناقد الفنى الراحل "جليل البندارى" فقال عن مشوار حياة تحية كاريوكا : عندما ثبتت أقدامها في عالم الفن، وبدأت تظهر بقوة فى المجتمع المصرى واختلطت بالأوساط الراقية، جاءها عقد من تركيا بمائة جنيه فسافرت فى الحال، ورقصت أمام كمال أتاتورك الذى أخذها فى نهاية الحفل وأهداها سوارين من الذهب المرصع بالماس..

كما زارت فى هذه الرحلة كل من بلغاريا والنمسا وإيطاليا، وفى كازابلانكا دعاها أحد المخرجين الأمريكيين لتقوم بدور البطولة فى فيلم قصير لحساب إحدى شركات الإنتاج.. وعرض هذا الفيلم بدار سينما "مترپول فى بداية ١٩٣٨.

وفى عام ١٩٤٣ اشتركت تحية كاريوكا مع العديد من الممثلين والممثلات العالميين من الذين جاءوا إلى الشرق الأوسط فى حفلات الترفيه عن قوات الحلفاء.

* * *

ونأتى لأهم الأحداث التاريخية التى عاصرتها هذه الفنانة والتى ارتبط فى واقع الأمر بعلاقاتها المتميزة ببعض الشخصيات التى مارست أدواراً تاريخية معينة، وكان فى مقدمة هذه الشخصيات الضابط "مصطفى كمال صدقي" وكان من أبرز أعضاء الحرس الحديدى، رغم أن الملك فاروق كان قد اعترض على عضوية هذا الضابط الذى أتى به يوسف رشاد طبيب الملك الخاص. وذلك بحجة أنه كان يعتنق المذهب التروتسكى.

والغريب أنه رغم ذلك فقد اختاره يوسف رشاد وزوجته كرئيس للمجموعة المسلحة داخل هذا التنظيم الذى أنشأ من أجل حماية الملك نفسه.

كما ظل مصطفى كمال صدقى أيضا ولفترة طويلة مسئولاً عن الجناح العسكرى بالحرس الحديدى، حتى فى ظل رئاسة وزعامة ناهد رشاد لهذا التنظيم السرى!.

ومما يقال فى هذا السياق أن سبب الإبقاء على مصطفى كمال صدقى فى هذا الجهاز الملكى الخطير هو وقوع "ناهد رشاد" فى غرامه، هذا الحب أدخله فى منافسة شديدة مع الملك فاروق الذى كان قد وعد ناهد رشاد وصيفة القصر بالزواج منها بدلاً من الملكة فريدة!

كما انتهت تلك المنافسة أيضاً بإقدام مصطفى كمال صدقى على اغتيال الملك فاروق نفسه. ويبدو أن هذه المحاولة كانت طريقه الممهد للالتحاق بتنظيم الضباط الأحرار الذى قاد ونفذ ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

ومما يقال فى هذا السياق أيضا أن الفنانة تحية كاريوكا. قد ارتبطت بهذا الضابط ارتباط الأزواج.. ولذلك فقد شهدت معه.. أحداثاً أخرى حتى من بعد قيام الثورة وهى أحداث تاريخية تستحق التسجيل وأن نقف على تفاصيلها.

ويؤكد الناقد الفنى حسن إمام عمر أن مصطفى كمال صدقى كان بالفعل من بين أزواج تحية كاريوكا وقد اقترنت به مع بداية ثورة ٢٣يوليو.. كما حكم عليها بالسجن لاشتراكها معه فى قضية سياسية.. ثم أفرج عنها بعد أن ثبتت براءتها!.

* * *

وفى أحد الحوارات الصحفية الساخنة ذكرت الفنانة تحية كاريوكا قصة خلافها مع الثورة ومع جمال عبدالناصر فقالت على سبيل المثال : انها فى

عام ١٩٥٣ أضربت عن الطعام وهى مسجونة فى سجن مصر بسبب توزيعها لمنشور سياسى حول مفهوم الديمقراطية، وقد قضت فى السجن مائة يوم وواحد.

ولما سئلت عن سبب الإضراب قالت : لمنع التعذيب، وبالفعل نجحنا أنا وزملائى فى منع التعذيب!.

ومما يردده المؤرخون عن سبب ارتباط تحية كاريوكا بالضابط مصطفى كمال صدقى هو دوره الوطنى الذى تبلور بوضوح فى وقوفه فى وجه الملك فاروق إلى حد إقدامه على اغتياله، واشتراكه من ناحية أخرى مع تنظيم الضباط الأحرار فى الوقوف فى وجه الإحتلال الانجليزى.

ونترك تحية كاريوكا تحكى لنا بقية الأحداث السياسية التى عايشتها.. وهى تقول عن ذلك : أنا ثورية من يومى مثل كل أبناء منطقة القناة.. عمى شنقه الانجليز، ويوم دفنه زغردت نساء العائلة فرحاً باستشهاده. وعلاقتى الوطنية وبالعمل الوطنى بدأت من خلال حرب عام ١٩٤٨. وكنت أساعد الفدائيين بالمال والعمل.. حملت طوربيدات لايستطيع حملها الرجال فى باطن السيارة.. وكنت أدخل بها إلى أرض أختى الواقعة فى منتصف معسكرات الإنجليز والتى أطلقوا عليها فيما بعد "تبة مريم".. نسبة إلى أختى التى خبأت فى يوم من الأيام الرئيس السادات بعد اتهامه فى حادث مقتل أمين عثمان!.

وعندما قامت الثورة كنت من مؤيديها، ولما انحرفت عن طريق العدالة والحرية رفضت ذلك واشتركت فى عمل منشورات قلت فيها : "ذهب فاروق وجاء بدله أربعة"..

وقبض عليّ وسجنت في زنزانة إنفرادية، ولكنني كنت قد وزعت ١٥٠ ألف منشور.. كانوا في بيتي قبل القبض علي.

وفي السجن أطلقوا على اسم تحية.. ولم يستطع المسئولون تصنيفي كشيوعية أو إخوانية.. ولم يجدوا دليلاً ضدي.. فأفرجوا عني..

وأضافت تحية كاريوكا : لم أكن في يوم من الأيام ضد عبدالناصر شخصياً.. وعندما رأيت العلم الإسرائيلي في عام ١٩٦٧ فوق القنطرة غرزت أظافري في كفي فتمزق اللحم.. ولايزال أثر الجرح في يدي حتى الآن، وعندما رأيت الأسرى شعرت أن القيامة قامت.

أما في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ فقد أفطرت في العاشرة مساء من شدة توتري.. فلم أكن مصدقة أننا عبرنا القناة بالفعل.. ولم أصدق إلا بعد أن ذهبت إلى القنطرة ورأيت العلم المصري مرفوعاً هناك من جديد.

***

والرئيس الراحل أنور السادات يُعد من الشخصيات السياسية البارزة التي كانت لها عدة مواقف وطنية مع تحية كاريوكا.. خاصة في فترة جهاده الوطني قبيل ثورة ١٩٥٢.

والغريب فيما سوف نرويه على لسان تحية كاريوكا.. أنها كانت الممثلة والراقصة الثانية التي كانت لها علاقة وطنية وسياسية وتاريخية مع الرئيس الراحل أنور السادات، وقد دفع بها القدر للإلتقاء بالمناضل أنور السادات بعد حادث مقتل أمين عثمان..

وقالت تحية كاريوكا فى أوراقها الخاصة عن هذا اللقاء : "أذكر أيام مقتل أمين عثمان عميل الإنجليز.. كان الإنجليز داخيين على قتلة أمين عثمان، وكان منهم الرئيس السادات... ولم يكن أحد من الانجليز يفطن أن السادات مختبئ فى معسكرهم.. إذ كان هذا المعسكر موجوداً أمام منزل أختي.. ولكي أذهب لأختي هذه. كان لابد أن أمر من خلال معسكرهم، ودخلت بسيارتي وكان السادات معي، ولم يشعر بوجوده أى إنجليزى لمدة عام"!.

***

ولاشك أن هذا الزخم الهائل من العطاء الوطني، ظل بداخل هذه الفنانة، تحاول من حين لآخر التعبير عنه فى الواقع وفوق خشبة المسرح أيضا.. فبعد أن خرجت من السجن الحربى عام ١٩٥٤ وبعد ثبوت براءتها من تهمة معارضة الثورة، تردد بعض الفنانين فى العمل معها مرة أخرى فى مجال الفن.. ورغم ذلك كان هناك فريق آخر من الفنانين الذين وقفوا بجوارها ولم يرهبهم الموقف مثل الفنان عبدالوارث عسر والفنان فايز حلاوة الذى اقترنت به فى فترة من الفترات وكونت معه فرقة مسرحية تخصصت فى المسرح السياسى.

وإذا ما تركنا جانب الفن والسياسة فى حياة هذه الفنانة المتألقة.. وأخذنا نبحث عن مواقف أخرى سجلت من خلالها بعض ملامح تاريخنا الوطني سوف نكتشف هذا الجانب فى عملها النقابى حيث اختيرت لأول مرة وكيل نقابة الفنانين فى عام ١٩٨١ ثم نقيباً للمهن التمثيلية لمدة ١٥ يوماً لحين اختيار النقيب الجديد، وفى عام ١٩٨٧ رشحت نفسها نقيبة لاتحاد النقابات الفنية أمام المرحوم سعد الدين وهبه.

(١٠) محمد عبدالوهاب



عشرات الشخصيات

السياسية كانوا أصدقاؤه !

إن قرار اختيارنا للموسيقار العبقرى محمد عبدالوهاب ضمن ضيوف هذه الأوراق، للحديث عنه كرجل لعب أدواراً متميزة فى تاريخ حياتنا الوطنية والفنية والسياسية كذلك، قد صحبه نوع من القلق المصحوب أيضا بالرهبة والرغبة!.

والمقصود هنا بالرهبة، ماينتاسب كل من يتصدى للكتابة عن العباقرة والعظماء.. والأسباب معروفة.. أقلها الخشية من سوء التناول وسوء العاقبة أيضا. أما الرغبة فهى نابعة فى الأصل من الإصرار على معرفة الجديد.. حتى ولوجاء بطريق الصدفة.

ولقد دفعتنى أحاسيس الرهبة إلى قراءة كل ماكتب عن الفنان موسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب منذ عام ١٩٢٤ وحتى من بعد رحيله!. على أمل أن نكتشف جانباً جديداً نلقى عليه الأضواء ونقدمه لمحبيه.. وهنا التقت أحاسيس الرغبة بأحاسيس الرهبة..

وكانت رحلة ممتعة كل أدواتها الأوراق والقلم، كما كانت كل أماكن الزيارة والمتعة والترويح عن النفس قد انحصرت فى أروقة الأرشيف وأرفف المكتبات الخاصة والعامة.

***

ومن خلال المتابعة المتأنية لآلاف المقالات والأخبار والتحليلات والموضوعات الصحفية. وبالمثل لعشرات الكتب التى إتيحت لنا عن هذا الفنان العبقرى.. وجدنا أن هناك بالفعل جانباً خفياً فى حياة محمد عبدالوهاب، كان لابد لنا من إظهاره ومناقشته ثم إلقاء الضوء المبهر عليه وعلى ملامحه.

ورغم قوة ارتباط هذا الفنـان بهذا الجـانب الهـام مـن حياتـه، إلا أنـه ونزولاً على رغبته الشخصية كان لايسمح لأحد حتى لأقـرب الأصدقـاء مـن التحدث عن هذا الحيز الخفى وهو الذى يرتبط فـى الأصـل بحديثنـا فـى هـذه الأوراق، والمعنى به الجانب التاريخى والوطنى من حياة عبدالوهاب الفنان.

ونستطيع أن نؤكد خلال السياق نفسـه أن أهم نشـاط وطنـى ارتبط بحيـاة عبدالوهاب، والذى قدم لنا فيه أهم جهـوده بعيداً عن الفن، قد تـم رغمـاً عنـه.. وذلك حينما تدخلت القيادة السياسية فاختارته عضواً برلمانياً بمجلس الشورى.

والمعروف أن الموسيقار محمد عبدالوهاب، كان قد مارس مـن قبـل.. العمل السياسى، وقدم من خلاله الكثير من الإنجازات.. لكن ولذكائه المفرط، قد تمكن من أن يكلـل تلـك الجهـود بالألحـان والأغـانى والأعمـال السـينمائية المتعددة، وقد تجلى ذلك بوضوح حين أقدم على خوض تجربة انتخابات نقابة المهن الموسيقية ثم انتخابات جمعية المؤلفين والملحنين الذى ظـل رئيسـاً لهـا حتى يوم وفاته!.

* * *

لقد بدأ الفنان محمد عبدالوهاب مشوار حياته الفنية كمطرب ذاع صيته حتى أطلق عليه المؤرخون لقب "مطـرب الملـوك والأمـراء "ومـع ذلـك فقد تحول فى فترة من فترات حياته إلى الموسيقى والألحـان حتـى أصبـح كذلـك من أشهر ملحنى الأغنية العربية فى العصر الحديث. وقـد تـرك وراءه أكـثر مـن ١٨٠٠ لحـن لأغنيـات مشـهورة سـواء بصوتـه أو بصـوت المطربيـن والفنانين الآخرين.

وحين نتحدث عن المشوار الوطني والسياسي في حياة محمد عبدالوهاب والذى بدأ عام ١٩٢٤ وحتى يوم رحيله في عام ١٩٩١ يمكن تقسيم هذا المشوار إلى عدة محاور : منها علاقته بزعماء مصر السياسيين، ودور أمير الشعراء شوقي في تأكيد هذه الصداقات، ثم علاقة عبدالوهاب نفسه بالعديد من الأمراء والملوك والرؤساء.. وثالثا : إرتباطه بالأحداث السياسية الساخنة التي هزت مصر في العديد من المناسبات سواء أثناء أحداث الحرب العالمية الثانية أوبعد توقيع اتفاقية "كامب ديفيد" بين مصر وإسرائيل، وأخيراً اختياره عضواً في مجلس الشورى عام ١٩٨٣.

وفي تصورنا أن الحديث المفصل عن هذه المحاور يحتاج إلى عدة كتب.. والغريب أن أحداً لم يفكر من قبل في إلقاء الضوء على مشواره الوطني وكفاحه السياسي.

وقد يكون السبب في ذلك راجعاً إلى شخصية عبدالوهاب نفسه، حيث كان يفضل على الدوام وفي كل حواراته أن يتحدث فقط عن الفن دون غيره. ولعل ذلك راجع في الأصل لحب عبدالوهاب للفن، ورغبته في توظيف هذا الفن لخدمة التاريخ وقضايا الوطن.

***

والبداية كما يجب أن تكون في تصورنا بالنسبة لعظيم مثل محمد عبدالوهاب هوالوقوف على بعض تفاصيل مشوار حياته.. ونشأته ومولده.. مع ضرورة التنبيه على شيء هام في هذا السياق وهو اختلاف المؤرخين حول يوم ميلاد محمد عبدالوهاب.. حيث يرى فريق من هؤلاء أنه ولد في عام ١٩٠٥ في حي باب الشعرية ووالده هو الشيخ عبدالوهاب بن عيسى

الذى يرجع نسبه إلى إحدى القبائل العربية التى كانت تقيم فى إحدى قرى مركز "أبوكبير" شرقية.

كما يرى فريق آخر من المؤرخين أن محمد عبدالوهاب من مواليد عام ١٩٠٢.. بل هناك من وصل إلى أقل من هذا التاريخ أو زاد عليه.. فقالوا إنه ولد فى عام ١٩٠١.. وأن يوم ميلاده هو ١٣ مارس.

والتحق محمد عبدالوهاب وهو فى سن السابعة من عمره بكتاب الشيخ "محمد السنباطى" لحفظ القرآن الكريم.. إلا أنه لم يكمل مشوار دراسته هذه لانشغاله بحب الفن والتمثيل!. كما التحق عبدالوهاب بعد ذلك بمدرسة السلطان شاويش الابتدائية، وذلك من بعد تعلقه بالفن والموسيقى والغناء.

ومما يؤكده المؤرخون أيضا.. أن فترة العشرينيات من هذا القرن هى التى شهدت تألق نجم محمد عبدالوهاب فى مجال الأغنية. إلا أنه مع مطلع الثلاثينيات كان قد أصبح نجم الحفلات العامة التى كان يغنى بها يومين كل إسبوع وكان أجره فى الليلة الواحدة عشرين جنيها.

أما فترة الأربعينات فقد شهدت هى الأخرى تألقه فى المجال السينمائى.. عندما أقدم على إنتاج فيلم. يوم سعيد" فى عام ١٩٤٠، كما قدم محمد عبدالوهاب أيضا للسينما سبعة أفلام كان آخرها فيلم "لست ملاكاً" والذى أنتجه فى عام ١٩٤٦.

أما فترة الخمسينيات فقد شهدت هى الأخرى لجوء عبدالوهاب إلى عالم الموسيقى إلى جانب الصوت فى الغناء. وقد جمع فى تلك الفترة بين الأغنية واللحن فى صوته هو.

ومما يجب ذكره فى هذا السياق أن عبدالوهاب قد تقاعد عن الغناء فى عام ١٩٦٤، وبالتالى بات متفرغاً لوضع الألحان لنجوم الطرب فى مصر وفى العالم العربى.

ولاشك أن هذا التألق الفنى غير المسبوق قد دفع بالموسيقار محمد عبدالوهاب خطوات إلى الأمام داخل المجتمع المصرى.. وبالتالى فقد عاصر العديد من الأحداث التاريخية الهامة. كما لعب أمير الشعراء أحمد شوقى دوراً هاماً فى إقتراب عبدالوهاب من أحداث مصر فى تلك الفترة من خلال ارتباطه بالعشرات من السياسيين المصريين من صناع هذه الأحداث.

لقد التقى محمد عبدالوهاب بأمير الشعراء لأول مرة فى عام ١٩١٨، وذلك بعد إنضمامه إلى فرقة "عبدالرحمن رشدى" المسرحية بعدما احترف الغناء. ثم جاء اللقاء الثانى بينهما فى عام ١٩٢٥ عندما أقام نادى الموسيقى الشرقى حفلة موسيقية بالإسكندرية، وقد غنى فيها عبدالوهاب قصيدة من التراث القديم فأعجب به أمير الشعراء شوقى.

وكان هذا الحفل بداية ارتباط عبدالوهاب بأمير الشعراء بدون إفتراق حتى رحيل أحمد شوقى عن دنيانا، وقد أتاح له فرصا عديدة لمجالسة كبار الكتاب والشعراء وكبار رجال السياسة.

وفى أوراق محمد عبدالوهاب الخاصة اعتراف عظيم بفضل أستاذه الأول شوقى خاصة فى مجال الوطنية والسياسة. حيث قال : "كان شوقى بك يعيش فى قلب الحياة السياسية فى مصر من دون أن يرتبط ارتباطاً صريحاً بحزب من الأحزاب. وإن كان يميل إلى الأحرار الدستوريين، ولكن هذا لم يمنعه من مصادقة سعد زغلول.."

ومن أهم رجال السياسة والوطنية من الذين اقترب منهم عبدالوهاب وعرف عن طريقهم أحوال مصر.. الزعيم سعد زغلول زعيم الأمة. ومصطفى النحاس خليفة سعد باشا ومكرم عبيد وإبراهيم عبدالهادى وحافظ عفيفى رئيس ديوان الملك فاروق وآخرين.

ولقد كشف لنا عبدالوهاب فى أوراقه الخاصة وفى بعض حواراته الصحفية بعض أسرار علاقته بهؤلاء السياسيين فقال على سبيل المثال عن بداية معرفته بسعد زغلول : " كان عمرى ١٢ سنة عندما ذهبت إلى بيت الأمة واتشعبط فى الصوان لأسمع صوت الزعيم.. ولم أكن أفهم وقتها ماذا تعنى عبارة "زعيم الأمة"، ولكنى كنت أرددها بسعادة وبجهل!!".

وقال أيضا عن سعد زغلول : "رأيت سعداً عن قرب.. اصطحبنى شوقى معه عام ١٩٢٧ وجلست على مائدة، ولم أصدق أنى واحداً من جلساء سعد باشا أثناء غدائه. وكان يرتدى "الروب دى شامبر".. وفوق رأسه الطربوش رمز المصرية والوقار فى ذلك الزمان. وكان يجلس بجواره النقراشى وأحمد ماهر ومكرم عبيد. كانوا يحيطون به فى ألفه وونس.. لقد كنت وقتها جائعاً لكنى نسيت جوعى أمام انبهارى بالمشهد.

ثم قال عن علاقته بالسياسى مكرم عبيد : "عرفت مكرم عبيد وجننت به وأحببته.. كان فى تصورنا أنه خليفة سعد زغلول فى الكلمة وفى الخطابة والتأثير على الناس، وكان هو بالفعل كذلك.. فاقتربت منه عندما جاءنا فى إدارة فرقة عبدالرحمن رشدى فى باب الخلق، وكان فى ذلك الوقت مدرساً بكلية الحقوق.. كان يطلب حفلة لغرض خيرى.. وقد جلست فى مواجهة مكرم عبيد ويبدو أنه وبعد أن تفرسنى جيداً " حس بى" فطلب منى حتة مزيكة.. شعار.. هتاف..

لقد صادقت مكرم عبيد صداقة غير عادية وربما لايعرف أحد أننى عرفت مكرم عبيد قبل معرفتى بشوقى وماقربنى منه كان الفن والموسيقى، لقد كان يغنى وكان مريضاً بالكورال.. لقد كان مكرم عبيد يعزف على البيانو."

ثم قال عن علاقته بالزعماء الآخرين : "وعرفت مصطفى النحاس، وكنت أذهب إلى بيت نسيبه خليل جزار، وأنام عنده وكان يعطينى "جلبابه السكروته"، وأحببت الوفد.. فقد كنت أحس أن مصطفى النحاس يستأثر بحبى، وكل حفل للنحاس لابد أن يكون فيه محمد عبدالوهاب..

وقليلون فقط يعرفون أن إبراهيم عبدالهادى قام بتأليف وزارته فى بيتى حيث جلس فى إحدى الغرف الهادئة وأمامه أوراق كثيرة.. وكان يفكر فى أسماء من سيستعين بهم فى مهمته السياسية ثم انضم إلينا وهو يطرح الأسماء ويصغى للانطباعات الأولى عن كل اسم..، وقليليون فقط يعرفون أن حافظ عفيفى رئيس الديوان "ندهوه" من بيتى وكنت أكتم ما أراه أو أسمعه رغم سنى الصغيرة وقلة تجاربى، ولكننى لم أكن أهوى الاستعراض بالأسماء المعلقة فى سماء السياسة والوطنية فى تلك الأيام.

ورأيت طلعت حرب وهو يذهب إلى حديقة الأزبكية ويأكل الكباب فى غرفة خاصة به فى التياترو ثم رأيت طلعت حرب، الرجل القوى عندما حَرم عليه الأطباء أكل أى شىء بلدى أوحراق!. حيث كان قد أصيب بمرض الكبد".

* * *

ولم تقتصر علاقات محمد عبدالوهاب بالشخصيات السياسية أوالوطنية على ماكان منها فقط قبل ثورة يوليو.. بل امتدت كذلك إلى رجال السياسة

فى العهد الجديد مثل محمد نجيب وعبدالناصر والسادات وحسنى مبارك، هذا بالإضافة إلى علاقته بكل من الأمراء والملوك فى مصر وفى خارجها.

فهو يقول مثلاً عن علاقته برجال الثورة : "عندما رحت أهنىء رجال الثورة، وأقابل محمد نجيب الذى كانت تربطنى به صلات عائلية، نصحنى محمد التابعى أن أقابل جمال عبدالناصر – على حد تعبيره – "البريمو بتاعهم" – وإنتظرت حتى سمعت جلبه على الباب وهرول تسعة أنفار نحو باب مجلس الثورة حتى قابلوا شخصاً طويلاً عملاقاً له عينان نافذتان وعاملوه بأكثر من المستوى العادى وفهمت إن ده "اللى عليه العين، ووجدته يجلس.. ويخاطبهم هكذا : ماتيجى يا أنور، تعال جنبى يابغدادى. أقعد ياحسن، تعال يازكريا". وإلتفت جمال عبدالناصر نحوى وخاطبنى : "أنت تعرف إنى من أكبر السميعة بتوعك"..

وكانت هذه هى المقابلة الأولى لى مع جمال عبدالناصر.. والمقابلة الثانية كانت متعلقة بالضرائب.. أما اللقاءات التالية فكانت من أجل تلحين أغنية أنت عمرى".

ومما حرص على تدوينه الموسيقار الكبير محمد عبدالوهاب. فى أوراقه الخاصة هو تسجيل بعض علاقاته المتميزة أيضا بالملوك والأمراء المصريين.. وبشكل عام.. فقد ارتبط عبدالوهاب فى الفترة من عام ١٩٢٥ وحتى قبيل عام ١٩٥٢، بالعديد من الأمراء الذين اصطفوه لأنفسهم فنياً، وكذلك بعض الملوك فى مصر وفى خارجها.

ولقد اعترف عبدالوهاب فى أوراقه الخاصة بتلك الصلة الخاصة جداً.. فقال رداً على سؤال يتعلق بأسباب تسميته بمطرب الملوك والأمراء : "لأننى

غنيت أمام أكثر من ملك، وكان الأمير يوسف كمال مغرماً بى.. وكان يسمعنى بشوق وإعجاب كبير، وكان حاططنى فى الوصية بتاعته، يعنى لو ماقمتش الثورة، كان زمانى ملياردير.. وكنت أغنى للأمير يوسف كمال من السابعة إلى العاشرة.. ثم يصحبنى إلى الأمراء عبدالمنعم وعمرو ابراهيم وعباس حليم.. كانوا يتكلمون عن رحلتهم الصحفية وأمامهم خريطة، وأنا صامت لاأنطق".

وفى فقرة أخرى قال عبدالوهاب : "كما غنيت كذلك أمام ثلاثة ملوك. هم الملك فؤاد وملك الأفغان والملك فيصل".

ومتى غنيت لفاروق؟ قال : لم أغن له كثيراً، واذكر أننى غنيت مرة واحدة فى مناسبة إلغاء المعاهدة، وكان لى صديق عزيز.. هو "بشرى حنا" شقيق "سينوت حنا".. الزعيم الوفدى الكبير ولحنت له نشيداً فى بيت "بشرى حنا"، وسمعه وأعجب به، وذهبت لأغنى فى مسرح فخم خصص لهذه المناسبة، ولا أعرف أين رأيت المسرح.. لكنى مازلت أتذكر أنه تحفة للعين.

ولقد غنيت النشيد أمام فاروق، وكنت أشعر أنه يستمع بلا استجابة، وربما كانت هذه سمة الملوك ألا ينفعلوا.

– وهل كان فاروق يحبك .. كما أحب نجوم السياسة

– الملك فاروق ماكانش بينى وبينه عمار.

***

وعندما نترك علاقة محمد عبدالوهاب برجال السياسة، وكيف تعلم منهم السياسة الواجب.. لنتحدث عن أهم الأحداث السياسية والقومية والتاريخية التى حضرها عبدالوهاب حضور المشاهد والمشارك، نجد أن من أول هذه الأحداث، وقائع الحرب العالمية الثانية، التى لعب فيها صوت محمد

عبدالوهاب إلى جانب صوت أم كلثوم دوراً دعائياً غير مسبوق، عندما إضطر رجال المخابرات فى دول الحلفاء ودول المحور على السواء الدخول فى منافسة شديدة للاستحواذ على صوت عبدالوهاب، بل ووصل بهم هذا التنافس إلى حد التفكير فى إلقاء القبض عليه وترحيله إلى بلادهم لتسجيل أغنياته هناك، خوفا من قيام الدول الأخرى بالإقدام على هذه الخطوة المجنونة.

وينوه الكاتب الصحفى الراحل "محمد التابعى" إلى ذلك بقوله : إن رجال المخابرات البريطانية فى الشرق الأوسط لاحظوا أن وكلاء المحور راحوا يجمعون من الأسواق جميع الأسطوانات العربية وخصوصاً أسطوانات عبدالوهاب وأم كلثوم استعداداً للحرب الدعائية، فنشطوا هم كذلك إلى شراء هذه الأسطوانات وكان سباقاً حاراً بين الفريقين".

وبعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على وقوع أحداث الحرب العالمية الثانية والتى شارك فيها محمد عبدالوهاب رغماً عنه.. تعرض لحادث سياسى آخر شارك فيه من دون أن يدرى أيضا.

وتقول تفاصيل هذا الحادث : إنه بعد أن وقع الرئيس السادات اتفاقية "كامب ديفيد" الشهيرة مع إسرائيل فى عام ١٩٧٩ عقدت مجموعة الدول العربية التى أطلقت على نفسها فى ذلك الوقت.. "دول جبهة الرفض" اجتماعاً عاجلاً فى بغداد، وكان هدف الاجتماع اتخاذ قرارات عاجلة لمنع إذاعة أغانى وألحان محمد عبدالوهاب، وذلك عقاباً له ولمصر على توقيع اتفاقية صلح مع إسرائيل.

وجاء فى تفاصيل القرار : "أن المجلس العربى للموسيقى والتأليف يزمع منع إذاعة أعمال موسيقار الجيلين محمد عبدالوهاب لأنه يضع ألحاناً للسلام الجمهورى المصرى الجديد، ولأنه يؤيد الرئيس السادات فى صلحه مع إسرائيل.

وكان هذا القرار مثار تعليق وغضب العديد من الصحفيين المصريين وعلى رأسهم موسى صبرى الذى كتب مقالاً نارياً عن هذا الموقف الغريب، وقد وصف هذا الموقف بالتفاهة التى تزعم أنها تقود الأمة العربية!.

وأخيراً نتوقف أمام أهم رافد من روافد الحياة الوطنية القومية والسياسية فى حياة محمد عبدالوهاب، الذى يتناول مشوار حياته السياسية وإرتباطه بنشاط الأحزاب آنذاك، سواء من قبل الثورة أو من بعدها.

ففى عام ١٩٣٦ أعلن تأييده لمعاهدة عام ١٩٣٦ التى وقعها حزب الوفد مع بريطانيا. وقد غنى للنحاس باشا قصيدة عبر فيها عن هذا التأييد قال فى بعض كلماتها :

كللوا بالمجد هام الظافرين

وانثروا الورد وحيوا الصادقين

مصطفى أنت الأمين

يازعيم المخلصين.

بالإضافة إلى ذلك قال المؤرخ الراحل عبد الله أحمد عبد الله مؤكدا على وفدية محمد عبد الوهاب : "وفى أحد الانتخابات فى فترة ما قبل الثورة ساهم عبد الوهاب فى تأييد "عبد الحميد عبد الحق " باشا مرشح الوفد فى دائرة السيدة زينب بأغنية إنتخابية سياسية رددتها الجماهير مع صوت عبد الوهاب المسجل فى شريط".

وقد تجلت وفدية عبد الوهاب أكثر فى علاقته ومواقعه المتميزة مع مصطفى النحاس ، حيث أكد هو ذلك الأمر فى كثير من حواراته الخاصة والفنية حين قال : كنت حاسس بالوفد رغم أنى لم أجاهر يوما بحبى لحزب ما ولم أعط ايه علامة من علامات التحيز لحزب ما .. كنت صديقا للجميع وحافظت على صداقة الكل.

* * *

وبعد قيام ثورة يوليو فى عام ١٩٥٢ وانفراط عقد الأحزاب ، تقوقع عبد الوهاب .. سياسيا، والتزم بالخط الأحمر الذى رسم لـه وبقـى لا يفـارق آلته الموسيقية الشهيرة .. وعاد من جديد إلـى شـارع الفـن حيث تحول الـى فنان فقط . وقد تجلت حنكته التاريخية والسياسية خلال تلك الأيـام ..خاصـة فى تأقلمـه مـع الوضـع السياسـى الجديـد.. وإقناعـه لرجـال الثـورة بأنـه الآن معهم، وومن أجل أن يثبت لهم ذلك، إجتهـد فـى تقديم الألحـان الجديـدة التـى خدمت زعيم الثورة، وأعماله الجديدة.

والدليل على ذلك كمجرد مثال واحد. ذلك الاشتباك الفنى الشهير الـذى نشب عام ١٩٦٠ بين عبد الوهاب وبين الفنان الراحل محمد فوزى فى أحقية أيهما فى الفوز بأغنية "ناصر".

ويبدو أن إصرار عبد الوهاب على الفوز بكلمات هذه الأغنية الوطنية التى كتبها الشاعر الراحل "حسين السيد"، بعدما وصل الأمر إلـى المحكمـة.. كانت جواز مروره الهادئ داخل النظام السياسى الثورى الجديد.

وحتى من بعد رحيل عبد الناصر سارع عبد الوهـاب إلـى تـأييد خلفـه الرئيس السادات .. الذى كافأه بأن أنعم عليه برتبة اللواء العسـكرية واختـاره دون غيره ، لكى يعُد له لحن السلام الجمهورى الجديد ..

* * *

وفـى عهـد الرئيس مبـارك .. اختتـم عبـد الوهـاب مشـواره السياسـى والوطنى باختياره عضوا فى مجلس الشورى فى٢٩ اكتوبر عام ١٩٨٣ وقـد ظل به حتى وفاته فى ٤ مايو عام ١٩٩١.

(١١) محمود المليجى



صاحب أكبر رصيد من أدوار الشر..

يدخل مجلس الشورى !

هناك العديد من التواريخ الخاصة فى حياة الفنان القدير الراحل محمود المليجى .. تجعل منه أحد الشخصيات الفنية التى عاصرت العديد من أحداثنا التاريخية الهامة، وبالتالى تجعله على رأس قائمة أهل الفن من اللذين سطروا مواقف عديدة فى تاريخنا الوطنى بدموعهم وبدمائهم وبأدائهم الفنى المتميز أيضا.

ولقد استطعنا ، وبإجتهاد شخص ممزوج بحب متألق لهذا الفنان القدير.. من أن نحدد مسار تلك التواريخ وهى بالترتيب: عام ١٩١٠ وهو العام الذى ولد فيه محمود المليجى، ولم يكن يعلم ثم أنه سوف يعيش ٧٣ عاماً.. أحرز خلالها العديد من الانتصارات الفنية وغير الفنية. ثم عام ١٩٢٩.. عندما ترك المليجى دراسته الثانوية وانضم إلى فرقة "فاطمة رشدى.." هذا الانضمام المبكر لموكب الفن المصرى هيأه لمواصلة مشواره الفنى الطويل بتألق ونجومية ووطنية.. إذ انتقل من بعدها للعمل بفرقة "عزيز عيد" ثم العديد من الفرق المسرحية الأخرى.

ويجىء التاريخ الثالث فى زمرة هذه التواريخ والتى تركت آثارها الواضحة فى مسيرة حياة الفنان محمود المليجى، وهو عام ١٩٨٠ عندما قرر الرئيس الراحل أنور السادات اختياره عضواً سياسياً بالتعيين فى مجلس الشورى، فى أول دور انعقاد له من بعد تشكيله كمجلس برلمانى ثانٍ إلى جانب مجلس الشعب.

ثم يأتى التاريخ قبل الأخير فى سلسلة هذه التواريخ، وهو يوم رحيل المليجى عن عالمنا فى عام ١٩٨٣.. وقد شهد نفس العام نهايات معلنة عشاها الفنان محمود المليجى، بعدما أسدل الستار على حياته الحافلة.

* * *

ولولا أن إسرائيل قد أذاعت فى عام ١٩٩٤ برنامجاً خاصاً عن أشهر محاولاتها لتجنيد عملاء لها فى مصر من الفنانين والفنانات للعمل مع رجالها فى مجال التجسس، وذكرت من بين هؤلاء محمود المليجى نفسه، لما كان للتاريخ الأخير فى مسيرة تاريخ هذا الفنان أية قيمة.

وفى تصورى الشخصى فإن الفنان القدير الراحل محمود المليجى لم يكن ليتعرض لمثل هذا الموقف البارد والسخيف من جانب إسرائيل لولا نجوميته وشهرته التى امتزجت كثيراً بأدوار الشر.. ولولا أيضا تميزه فى العمل الوطنى وإسراعه الدائم من أجل المشاركة فى إحياء العديد من المناسبات الوطنية.

يقول المؤرخ الفنى حسن إمام عمر عن بعض ملامح حياة الفنان العملاق، أن اسمه بالكامل هو محمود حسين المليجى.. ولد فى حى المغربلين بالقاهرة فى ١٢ ديسمبر عام ١٩١٠، ثم انتقل مع أسرته المتوسطة الحال والمكونة من الوالد والوالدة وشقيقته الصغرى إلى حى السيدة زينب.

حصل محمود المليجى على الشهادة الابتدائية من مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ثم التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية، وأثناء دراسته الثانوية هذه كانت هوايته الأولى الغناء، لأن والده كان من محبى الطرب ومجالس المطربين، وكان يقيم فى بيته من وقت لآخر جلسات الطرب والسلطنة.

والغريب أن والد محمود المليجى حين علم بهواية ابنه الفنية نهره بل وضربه، وبالتالى اضطره للإقلاع عن هذه الهواية، بل والأكثر غرابة من

ذلك أن أحد أساتذته فى الموسيقى فى ذلك الوقت كان هو الموسيقار الشهير "محمد عبدالوهاب" الذى كان يعمل فى بداية حياته مدرساً للموسيقى بوزارة المعارف، وقد استبعد محمد عبدالوهاب التلميذ محمود المليجى من فرقة الأناشيد لأن صوته نشاز!!.

عندئذ اتجه الطفل محمود المليجى إلى ممارسة الرياضة، وعلى وجه الخصوص، رياضة الملاكمة، واستطاع بالفعل الحصول على بطولة المدرسة فى الملاكمة فى وزن الريشة.. ولكنه عندما هُزم فى إحدى المباريات بالضربة القاضية، أقلع عن هذه الرياضة إلى الأبد.

وأخيراً اهتدى المليجى إلى الطريق الذى خلق من أجله، وهو طريق التمثيل، على الرغم من أن مدرب فريق التمثيل بالمدرسة الثانوية فى ذلك الوقت كان هو الفنان أحمد علام، عندما رآه وسمع صوته أخبره بأنه لايصلح أبداً للتمثيل!!. ثم تغير مدرس فريق التمثيل بالمدرسة وتولى بدلاً منه المخرج فتوح نشاطى الذى اقتنع بموهبة محمود المليجى، وبالتالى أسند إليه دوراً رئيسياً فى المسرحية التى قدمتها المدرسة فى آخر العام على مسرح الأزبكية وكان ذلك فى عام ١٩٢٩.

وفى هذا الحفل تصادف وجود الفنانة فاطمة رشدى التى كانت تشاهد هذا العرض، فعرضت على المليجى العمل معها فى فرقتها ممثلا محترفاً وهو لايزال طالبا بالمدرسة الثانوية.

ومنذ ذلك اليوم التحق محمود المليجى ممثلاً بفرقة فاطمة رشدى بمرتب ثابت قدره ستة جنيهات، ولكن عندما علم أبوه بذلك ثار عليه ثم طرده من المنزل، مما اضطره لتأجير غرفة فوق سطح أحد البيوت بشارع عماد الدين!!.

***

ويقول الفنان محمود المليجى فــى مذكراتــه عن هـذه البدايـة : "وقبلـت بالمدرسة الخديوية، وكان ناظرها هو المربى الفاضل "لبيب الكردانى". الــذى كان يشجع كل الهوايات، وفى مقدمتها فـن التمثيـل، وفـى المدرسـة الخديويـة بدأت أمارس هوايتى الفنية فالتحقت بفرقة التمثيل هناك. وأثناء التحاقى بهـذه الفرقة اتيحت لى فرصة كبيرة حيث تتلمـذت علـى يد أحمـد عـلام وجـورج أبيض وعزيز عيد وفتوح نشاطى.. هؤلاء الفنـانين الذيـن كـان يستعين بهـم المرحوم "لبيب الكردانى" ناظر الخديوية ليدربوا فريق التمثيل".

ولم يكمل المليجى دراسته الثانويــة كمـا كـان يـأمل والـده وأمـه.. وبالتـالى تفرغ كلية للعمل الفنى.. على الرغم من أنه كان فى السنة النهائية ولم يكـن بينـه وبين الحصول على شهادة البكالوريا سوى عـام واحـد فقـط.. وقد واجـه الشـاب محمود العديد من الصعوبات على اثر خروجه المبكر من المدرسة. وظـل كذلـك حتى نجح فى العمل بفرقة الفنون المسرحية التى كونتها الدولة آنذاك..

وفى عام ١٩٣٨ وبعـد رحيـل والـده، واصـل مشـواره الفنـى بـإصرار حتى دخل عالم السينما.. عندما قررت فاطمـة رشـدى دخـول ميدان التمثيـل إلـى جـانب المسـرح، فقدمـت أولـى أفلامهـا بعنـوان "الـزواج" وفيــه أسـندت البطولة إلى محمود المليجى.

ويقول الناقد الفنى حسن إمام عمر أن المليجى كـان مـن المفـترض أن يقوم هو بدور البطولـة فـى فيلـم "العزيمـة" أمـام فاطمـة رشـدي أيضـا، لـولا وجوده خارج مصر فى تلـك الفـترة حيث كـان يقوم برحلـة فنيـة مـع فرقـة يوسف وهبى فى السودان.

وأما عن أولى أدواره فى السينما كممثل شرير.. فكانت فى فيلم "قيس وليلى". عندما نجح فى تجسيد شخصية "ورد" غريم "قيس".. مما جعل المخرجين يسندون إليه أدوار الشر التى برع فيها.. حتى أصبح من يومها إلى يوم رحيله يطلق عليه "شرير الشاشة"!.

ويقول محمود المليجى نفسه عن ارتباطه بتلك الأدوار : بعد فيلم الزواج الذى مثلته أمام فاطمة رشدى أسندت إلى أحد أدوار فيلم "وداد" فى أول أفلام أم كلثوم.. وبعد هذا الفيلم مثلت مجموعة أخرى من الأفلام حتى أخرج "إبراهيم لاما" فيلم "مجنون ليلى"، ومثلت فيه دور "ورد" وهو عدو قيس الأول فى الفيلم طبعاً، ولقد لعبت هذا الدور بإتقان، ومن يومها لازمتنى أدوار الشر، ولذا مثلت مايقرب من ٩٠٪ من أدوار الشر فى السينما العربية.."

ويرى بعض المؤرخين أن رصيد المليجى فى السينما المصرية قد بلغ أكثر من ألف فيلم.. بخلاف رصيده الكبير أيضا فى المسرحيات والتمثيليات والمسلسلات الإذاعية والتليفزيونية.

* * *

وحين نترك ساحة الفن إلى ساحة الوطنية والبطولات الشعبية والأعمال المتميزة. سوف نكتشف أن الفنان القدير محمود المليجى كان كما سبق وذكرنا فى طليعة أهل الفن من الذين ارتبطوا بتاريخ مصر.. من خلال بعض الأحداث الوطنية التى عاصرها.. بل وشارك فيها مشاركة فعلية.

والغريب أن تلك المشاركات قد ارتبطت بمشوار حياة المليجى حتى من قبل أن يحترف العمل الفنى. وكانت البداية الفعلية لها كما ذكر ذلك المليجى نفسه عندما كان طالباً فى المدرسة الثانوية.

ويصف لنا محمود المليجى تلك التجربة الوطنية الكبيرة والتى تركت بصماتها واضحة على حياته فيما بعد.. فيقول : "لاأستطيع أن أتحدث عن المدرسة الخديوية إلا وأقف قليلاً عند تاريخها الوطنى، فقد لعبت هذه المدرسة دوراً كبيراً فى تاريخ الوطنية المصرية وحركة المقاومة الإيجابية ضد الإنجليز وضد القصر. وفى بعض الأوقات خرجت منها أكبر المظاهرات.. وكم دارت معارك كبيرة بين طالبتها وبين جنود الإنجليز، ولاتمر مناسبة وطنية إلا وتقود هذه المدرسة مظاهرات المدارس الثانوية الأخرى. ولذا كانت دائماً محاصرة برجال البوليس المصرى الذى كان أغلب ضباطه من الإنجليز!.

ولم تكن مظاهرات الخديوية – كما يؤكد ذلك المليجى فيما ذكره – قاصرة على طلابها ، بل غالباً ماكان يقودها أساتذة المدرسة وقد استشهد بعضهم برصاص الإنجليز، وسالت دماؤهم الطاهرة على أرض شارع درب الجماميز الذى كان يهتز تحت أقدام المتظاهرين من الطلبة ومن العمال.

وأضاف محمود المليجى عن نفس الموضوع موضحاً لنا موقعه من هذه المظاهرات فقال :

"وشريط الذكريات الخاص بى يقف قليلاً عند إحدى المظاهرات.. لقد خرجت يوماً مع الطلبة فى مظاهرة كبيرة، وأمام المتحف الصحى بعابدين فوجئنا بهجوم جنود الإحتلال.. أطلقوا علينا الرصاص، ولما كنت فى مقدمة المتظاهرين فقد أصبت بطلق نارى فى ساقى. ولم أستطع بعدها مواصلة السير فسقطت على الأرض غارقاً فى دمى.. فى هذه اللحظة رأتنى سيدة كانت تراقب المظاهرة من شباك منزلها.. فأسرعت وخرجت إلى الشارع، وأمرت اثنين من خدمها بأن يحملانى إلى داخل منزلها الكبير.

وما كدت أدخل إلى فناء المنزل حتى أسرعت السيدة بإغلاقه ثم أسعفتني وضمدت جراحي.. ثم أرسلتني إلى منزلي في عربتها الحنطور بعد أن عاد الهدوء إلى نفسي.

وقد رآني أبي وأنا مضمد الجراح.. فسألني عمن أسال دمي؟! فرويت له قصة المظاهرة، فابتسم والدي رحمه الله، ثم ربت على كتفي، وبارك كفاح الشباب من أجل الوطن، ولم يغضب ولم يخف على صدر ابنه من رصاص الإنجليز لأن والدي كان من ثوار ١٩١٩. رغم أنه كان على قدر على بسيط من العلم".

***

ولم يتوقف قطار الوطنية داخل صدر وعقل محمود المليجي.. عند حد معين.. بل واصل مسيرته بلاتوقف. وكانت أمه تتصوره أحد ضباط جيش مصر المدافعين عن الوطن..

وعن ذلك يقول محمود المليجي أيضاً : ".. وفي ليلة لن أنساها، وكيف أنساها، وكأنما حدثت بالأمس.. كنت وراء الكواليس أستعد لدخول المسرح وبقي على دوري عشر دقائق في هذه اللحظة جاءني أحد السعاة ليقول لي أن أحد "الأفندية" يريد مقابلتي قبل أن أدخل المسرح فقلت له : دعه يتفضل، فقد يكون أحد المعجبين!.

وخرج الساعي ليعود ومعه "الأفندي"، وما كدت أراه حتى دارت بي الكواليس وارتعشت أوصالي وانفجر العرق غزيراً من وجهي.. نظرت إلى "الأفندي" نظرة فاحصة طويلة.. إنه هو وقد جاء إلى المسرح، إنه والدي!.

وكانت ليلة لا أدرى كيف مثلت ولاكيف نطقت الحوار.. وبعد إسدال الستار ذهبت إلى والدى الذى انتظرنى خارج المسرح ومشيت بجانبه، ومضت لحظات من الصمت قطعها والدى بقوله : أن تعمل بالتمثيل أو بغير التمثيل فهذا مستقبلك وأنت أدرى به من غيرك.. إننى لن أعاتبك على هذا.. ولكننى أعاتبك على شيء واحد على كذبك!. فكيف تقبل أن تستولى على مصروفات المدرسة، وعلى ثمن الدروس الخصوصية؟!. وكيف ترضى أن تسهر فى المسرح وتقول إنك تستذكر دروسك عند أحد الأصدقاء؟!

ووصلنا إلى المنزل، فروى والدى لوالدتى كل الحكاية.. حزنت أمى حزناً عميقاً لأن أمنيتها كانت تتجسد فى أن ترانى أحد ضباط الجيش المصرى، وامنيتها هذه هى التى دفعتنى إلى إجادة دورى فى فيلم "مصطفى كامل".. لقد مثلت فيه دور المناضل على كامل.. ضابط الجيش الذى كان وراء كفاح أخيه مصطفى كامل.."

***

وعلى مدى أكثر من خمسين عاماً.. ومنذ أن كان الشاب محمود المليجى طالباً بالمدرسة الخديوية، ظل يروى هذه البذرة الوطنية التى كان جزء من سيقانها قد بدأ ينبت أعمالاً فنية، ولكن على فترات متباعدة حتى جاء عام ١٩٨٠.. عندما اكتمل نمو تلك البذرة حتى صارت شجرة مورقة استظل بها أثناء وجوده تحت قبة مجلس الشورى.

ويبدو أن الفنان محمود المليجى لم يشارك وحده فى رى هذه الشجرة الجميلة.. بل شاركه فى ذلك الرئيس السادات، حين قرر فى منتصف عام ١٩٨٠ تكوين مجلس نيابى برلمانى إلى جانب مجلس الشعب، ليكتمل الشكل الديمقراطى بالمعنى الموجود فى الدول الأوروبية.

ولاشك كانت لدى السادات عدة دوافع، لاختيار محمود المليجى بالذات كأول فنان مصرى فى العصر الحديث خاصة فى فترة مابعد الثورة.. لكى يخوض تلك التجربة السياسية الفريدة..

ولدينا الدليل القوى على خصوصية هذا الإختيار.. هذا الدليل تبلور فى حب الانتماء الريفى الذى تميز به السادات.. ذلك لأن المليجى ينتمى فى الأصل إلى بلدة "مليج" الذى ينتسب إليها وعائلته الواقعة بمحافظة المنوفية، وهى أيضا إحدى القرى القريبة من بلدة السادات "ميت أبوالكوم"

ليس هذا فقط.. بل إن علاقة السادات بالفنان محمود المليجى قد بدأت مسارها الرسمى منذ عام ١٩٧٧ خاصة بعد تولى السادات الحكم خلفاً لجمال عبدالناصر.. وقد تجلت آفاق تلك العلاقة فى تكريم الرئيس السادات لمحمود المليجى فى عيد الفن.

وقد نشرت صحف تلك الأيام أن الرئيس السادات قد خص الفنان محمود المليجى دون غيره بحديث، لم يسمعه سواه.. وقد صرح المليجى للصحف آنذاك بتفاصيل مادار بينه وبين السادات فقال : "لقد سألنى السادات عن صحة عائلتى الصغيرة للاطمئنان عليها.. كما سألنى عن صحة زوجتى "علوية جميل" والسبب فى عدم حضورها، فأبلغت سيادته أنها لاتزال فى المصيف بالإسكندرية".

ورداً على سؤال عن أهم شيء لفت نظره فى عيد الفن؟! قال المليجى: "حديث الرئيس وتركيزه على كلمة "الانتماء".. ولذلك لابد وأن يضع هذه الكلمة كل فنان وكل مصرى أمام عينيه وحتى لايوجد على أرض مصر.. شخص يبيع نفسه للغير. لابد وأن يكون عطاؤنا لأمنا جميعا مصر".

* * *

وبعد هذا التكريم، أصدر الرئيس السادات قراراً جمهورياً باختيار الفنان محمود المليجي عضواً بالتعين في مجلس الشورى.. وكان ذلك الاختيار كفيلاً بتغيير نغمة الاخبار التي ارتبطت في ذلك الوقت بالفنان محمود المليجي وباتت الصحف والمجلات الفنية تتحدث عن هذا الفنان كرجل سياسة وليس كفنان..

فقالت على سبيل المثال : "استقبلت الدوائر الفنية والأدبية اختيار الفنان محمود المليجي عضواً في مجلس الشورى بفرحة كبيرة.. فإن هذا الاختيار جاء مؤكداً لمعنى كبير، وهو أن الدولة في عهد مابعد ثورة مايو باتت تؤمن بقيمة ومكانة الفنان، وتضع أهل الفن جميعاً في أرفع مستوى من التقدير والتكريم.

ومحمود المليجي الذي اختير عضواً في مجلس الشورى جدير بهذا الاختيار.. فقد كان ومايزال من الفنانين الذين أعطوا الفن بسخاء منذ ظهر في بداية الثلاثينيات كواحد من الشباب المثقف الذي انضم إلى الحياة الفنية".

وأضافت إحدى هذه المجلات قائلة : ومن الطريف أن المليجي كان مسافراً في إحدى الدول العربية لتصوير مسلسل تليفزيوني عندما أذيع نبأ اختياره عضوا بمجلس الشورى، وقد أبلغته زوجته السيدة علوية جميل بهذا الاختيار الذي أشاع في قلبها الفرحة.."

وكتبت أخرى تقول عن نفس الموضوع : " كان محمود المليجي في "عجمان" لتصوير مسلسل تليفزيوني عندما أذيع قرار تعيينه عضوا بمجلس الشورى، وقد قوبل إختيار المليجي ممثلاً للقطاع الفني في مجلس الشورى بالتقدير من جميع زملائه لما يتمتع به من احترام واتزان وبعد نظر، ولسجله الفني الحافل بالأعمال الجيدة والرائدة على مدى ٤٩ سنة..

ثم أقدمت مجلة ثالثة بعد نشر خبر اختياره فى هذا المنصب السياسى على نشر صورة الفنان وهو يتلو القسم السياسى.. وكتبت تحت هذه الصورة: "اختيار الفنان محمود المليجى لعضوية مجلس الشورى كان تتويجاً لعطاء واحد من جيل العمالقة الذى استطاع أن يثرى حياتنا الفنية خلال حقبة امتدت إلى مايقرب من خمسين عاماً.

ومع نهاية عام ١٩٨٣، خلا مقعد محمود المليجى فى مجلس الشورى من بعد رحيله، وبقى جسده قابعاً تحت الثرى فى الوقت الذى أصبحنا نحن فيه كمعجبين بفنه نعيش على ذكراه.. عندما نشاهد أعماله الفنية المتميزة من آن لآخر، وذلك حتى عام ١٩٩٤، وعندما جرت الدماء من جديد فى شرايينه، فعاد إلينا كبطل لإحدى الأحداث السياسية والوطنية العظيمة وكانت العودة هذه المرة بسبب أخبار تناثرت خارج مصر عن ارتباطه بالمخابرات الإسرائيلية وموقفه المشرف من هذه المخابرات..

ففى عام ١٩٩٣ أذاع التليفزيون الإسرائيلى فى احتفالات أكتوبر من نفس العام برنامجاً مطولاً عن جواسيس إسرائيل الذين خدموا المخابرات الإسرائيلية فى القاهرة وظل مضمون هذا البرنامج فى طى الكتمان حتى كشفت النقاب عنه إحدى المجلات المصرية الأسبوعية فى أواخر عام ١٩٩٤!!

وقبل أن نزيح الستار عن المزيد من المعلومات المتعلقة بصدق أوكذب هذه الرواية، نحاول مناقشة أبعادها، ثم ارتباطها بحياة الفنان سواء داخل الحياة السياسية أوداخل حياته الفنية.

·شكل عام. فإن ارتباط الفنان بعملية التجسس يعد من الظواهر غير
د ابتدعها الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية. ثم أخذت

عصابات اليهود التى كانت موجودة آنذاك على أرض فلسطين خيط هذه اللعبة. وبدأوا فى تطويرها، وتطويعها لخدمة أغراض دولة إسرئيل حيث، كانت ولاتزال أبرز أحلام الصهيونية العالمية.

وجاء تركيز هؤلاء اليهود فى تلك الفترة على تجنيد الفنانيين والفنانات سواء من رعاياهم أورعايا الدول العربية وخاصة من مصر!!. والتاريخ يعرف العديد من الأمثلة التى تم إلقاء الأضواء عليها.

أما بالنسبة للحالة التى نحن بصددها، والخاصة بحالة محمود المليجى فتقول مجلة "روز اليوسف" التى فجرت هذه القضية فى مقدمة طويلة ضمن حديثها عن محاولات إسرائيل تجنيد الفنانين المصريين لخدمتها بعد نجاحهم فى تجنيد الفنانة اليهودية "كاميليا" : "لقد خصصت إسرائيل فى عام ١٩٧٥ مبلغ مليون جنيه، حيث حاول الموساد عن طريق هذا المبلغ الضخم تجنيد عدد من الفنانين المصريين وكان على رأسهم الفنان محمود المليجى".

وجاء فى بقية التفاصيل : "لقد وقع الاختيار من جانب المخابرات الإسرائيلية فى تلك الفترة على تجنيد شاب مصرى من أصل أرمنى سافر إلى بيروت، وكان يدعى "جاك ليون توماس"..

ونظراً لعلاقته الواسعة ببعض الفنانين المغمورين بالسينما آنذاك.. فقد وضعته المخابرات الإسرائيلية تحت عيونها حتى وصوله إلى ألمانيا فى عام ١٩٥٨، وهناك تعرف على شاب ألمانى يدعى "إميل" وهو أيضاً من أصل لبنانى.

وتوطدت العلاقة بين الاثنين وأصبحا لايفترقان، واجتمعا على حب الجنس والخمور، ثم تحولت إلى السياسة.. ثم إلى كراهية جمال عبدالناصر فى مصر، وهنا وجد "إميل" الخائن ضالته.

وذات مساء عرض على "جاك" مبلغاً كبيراً من المال ثم طلب منه العودة إلى مصر ومساعدة المخابرات البريطانية على الإطاحة بحكم جمال عبدالناصر، فوافق "جاك"، ومن منزله بالقاهرة بدأ يرسل الرسائل الشفرية.. كما كان يسافر من وقت لآخر لمقابلة ضباط تشغيله فى ألمانيا.

وفى إحدى هذه الزيارات تعرف على فتاة تدعى "كاتى بندهوف" فتزوجها.. وجاء بها إلى منزله فى القاهرة فى حى "جاردن سيتى".. وعرض عليها طبيعة عمله فوافقت بالفعل على العمل معه كحاملة رسائل إلى أوروبا، ومنها إلى تل أبيب، وأيضا لتكون "صيادة للشخص الذى يريد تجنيده أو إخراج بعض المعلومات عنه. وبعد شهر كشف له ضابط تشغيله أنه يعمل مع المخابرات الإسرائيلية فلم يبد "جاك" دهشته.. بل استمر فى عمله المعتاد.

وأضافت الرواية الإسرائيلية حسبما جاءت فى التفاصيل: أن زوجة "جاك" الألمانية قد تعرفت على الراقصة "كيتى".. وأن الموساد طلب منها عن طريق هذه الراقصة تجنيد بعض الفنانين المصريين الكبار وأرسلت إسرائيل أسماء هؤلاء لعملائها بالقاهرة.. وكان على رأسهم الفنان "محمود المليجى"..

ومما يقال فى هذا السياق أن "كيتى" قد حاولت العديد من المرات الإيقاع بالفنان محمود المليجى، ولكن الفنانة علوية جميل" التى تزوجها محمود المليجى فى أوائل الخمسينيات، والتى كانت تكبره بعشر سنوات، وبما كانت تملكه من قوة شخصية وسيطرة عليه.. جعلت نساء الوسط الفنى يخفن من الاقتراب من المليجى.. وبالتالى فشلت الراقصة كيتى فى هذه المهمة.

وأخيراً يقع مدير الشبكة "جاك توماس" فى خطأ محاولته تجنيد ضابط مصرى بسلاح المدفعية، وكان يدعى "عاطف كيرولس".. عندما أخبر هذا

الضابط قادته.. وبالتالى فقد سقطت هذه الشبكة يوم ٦ يناير عام ١٩٦١ بعد حصار حى "جاردن سيتى"

إلا أن زوجة "جاك" بالإضافة إلى الراقصة "كيتى" - كما تدعى الرواية الإسرائيلية هربتا قبل وصول فرقة القبض على "جاك".. وقد أعدم الجاسوس الإسرائيلى مع ثلاثة من شبكته يوم ٢٠ ديسمبر عام ١٩٦٢.. بعد أن عُثر معه على نسخة من فيلم "سجين أبوزعبل".. ذلك لأن جهاز الموساد قد طلب نسخة هذا الفيلم بسرعة من جاك لأنهم كانوا يعدون الفنان محمود المليجى للقيام بعملية "سوزانا" - والخاصة بالجواسيس الموجودين فى ذلك السجن كما أشيع.

ونظراً لأن محمود المليجى هو الذى كتب سيناريو هذا الفيلم، مما جعله يبقى لأيام طويلة داخل السجن لكى يشاهد الأماكن الطبيعية.. لذلك فقد أصبحت الحاجة إليه فى إسرائيل تزيد عن أى وقت.. ومع ذلك لم يتوصل إليه أحد وفشلت حتى فكرة الوصول إلى أبى زعبل.

والغريب أن الرواية الإسرائيلية التى نقلتها هذه المجلة تؤكد أن الفنان محمود المليجى قد نجا من قبل من تجربة مماثلة لتجنيده جاسوساً لإسرائيل عام ١٩٤٨.. على يد الفنانة "كاميليا".. ووقع ذلك أثناء تصويره لفيلم "ولدى" بالاشتراك مع كاميليا، لكنها فشلت، ولما عرف المليجى هذا الأمر" رفض أن يمثل فى أفلامها معها مرة أخرى.

(١٢) كمال الطويل



يشارك أم كلثوم فى
إدارة مؤسسة ناصر الإعلامية !

لم أجد فناناً من الفنانين الذين عايشناهم فوق هذه الأوراق، كره العمل السياسي، وندم على دخوله حياتنا السياسية.. مثلما وجدنا الفنان الموسيقار كمال الطويل.. على الرغم من وقوفه فى مقدمة طابور أهل الفن من الذين ساهموا فى كتابة تاريخ مصر فى العصر الحديث بما شاهده وعاصره.. وشارك فيه من أحداث تستحق أن نقف عندها طويلاً!.

صحيح أنه لم يصرح لنا بذلك، إلا أننا توصلنا إلى ذلك من خلال متابعة متأنية لكل تصريحاته الصحفية التى أدلى بها سواء فى وقت تواجده تحت قبة البرلمان أوحتى من بعد اعتزاله العمل السياسى!.

ويجدر بنا أن نشير فى هذا السياق إلى التفرقة بين العمل الوطنى والعمل السياسى.. حيث تبين لنا أن الموسيقار كمال الطويل، له باع طويل فى العمل الفنى الذى امتزج بقوة ولفترة طويلة بالحياة الوطنية المصرية، خاصة فى فترة مابعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.. حيث تمكن وبإقتدار من تحقيق العديد من النتائج والإنجازات الباهرة فى مجال الوطنية والسياسة والمجال الفنى أيضا. مع الاختلاف فى الأهداف وفى التوقيت،

ويبدو أن الخلفية التاريخية والسياسية لعائلة كمال الطويل، خاصة بالنسبة لوالده المرحوم المهندس محمود الطويل الذى كان أحد أقطاب حزب الوفد القديم، كانت المحرك الأساسى له لأجل العودة مرة أخرى للانخراط فى سلك الوطنية من باب الفن وسلك الحياة السياسية أيضا.

وهناك عدة حقائق ارتبطت بمشوار كمال الطويل الوطنى والسياسى.. وقد رأينا ضرورة إلقاء الأضواء المبهرة عليها من قبل الوقوف على المزيد من التفاصيل. وأولى هذه الحقائق أن الفنان الموسيقار الكبير كمال الطويل حاول أن يبدأ مشواره السياسى والوطنى أولاً من داخل "حزب التجمع" وكان أحد الأحزاب الجديدة التى برزت على ساحتنا السياسية بعد عصر السادات.

والغريب كما يقول هو نفسه عن ذلك أنه لازالت له استمارة عضوية شارك بها فى تأسيس هذا الحزب، وإن لم يمارس كمال الطويل أى نشاط سياسى تحت لواء حزب التجمع، وقد ظل بهذه الصفة الحزبية حتى انتقل إلى حزب الوفد.

وكانت فى مقدمة دوافع كمال الطويل للخروج من حزب التجمع، أنه اكتشف سيطرة الماركسية على مجريات الأمور داخل الحزب، ولذلك نراه قد اتجه سياسيا لنيل عضوية حزب العمل.

وثانى تلك الحقائق أن كمال الطويل لم يحضر سوى اجتماعاً واحداً لحزب العمل، وهو الذى اقيم فى مقره القديم بحدائق القبة. ثم انسحب بعد ذلك من حزب العمل متجهاً إلى حزب الوفد، الذى ظل فيه عضواً عاملاً حتى تم اختياره ممثلاً للحزب فى مجلس الشعب عن دائرة شرق القاهرة.

وثالث هذه الحقائق أن كمال الطويل ورغم الخلفية الإرستقراطية له ولعائلته، فقد تقدم لعضوية مجلس الشعب عن فئة العمال!!. ومن أجل تأكيد هذه الصفة التى أحبها كمال الطويل، خاض رجال حزب الوفد معركة حامية مع الحكومة للموافقة على صفته الانتخابية الجديدة والتى دخل بها فعلاً عضواً فى مجلس الشعب.

ولسوف يبدو لنا من خلال الاستعراض السريع لكل هذه الحقائق، أن الموسيقار كمال الطويل أخذ ولفترة طويلة يتحسس طريقه نحو الحياة العامة وتاريخنا السياسى، وقد إختار فى بداية مشواره مايناسب وجوده على الساحة الفنية فارتبط بقوة بالزعيم جمال عبدالناصر وبثورة يوليو.

وقد وجد فى مبادىء حزب التجمع التعبير الحقيقى عن معتقدات الزعيم الراحل الذى لحن له ولإنجازاته أعظم الألحان والأغنيات الوطنية.

ولكن نظراً لخوفه من أن تلتصق به تهمة الماركسية السياسية، فقد ابتعد عن هذا الحزب حفاظاً على رصيده الجماهيرى ومن ثم اتجه إلى ممارسة العمل السياسى من داخل حزب العمل الذى كان يمثل فى الفترة نفسها مبادئ الوسطية السياسية.

إلا أن مكونات هذا الفنان.. الرجل الإرستقراطى، وارتباطه بالقاعدة العريضة التى كانت متمثلة فى حزب الوفد القديم.. كانت دافعه القوى للعودة من جديد إلى ذلك الحزب الذى كان والده من رجاله فى الماضى.

***

وتقول سطور مشوار حياة الفنان الموسيقار كمال الطويل فى مجال الوطنية والسياسة إنه دخل أولاً الاتحاد القومى الذى كان شكلاً من أشكال العمل السياسى بعد قيام ثورة ١٩٥٢ وبعد إلغاء الأحزاب.. وجاء دخوله فى هذا التنظيم فى عام ١٩٥٩ ممثلاً عن دائرة مصر القديمة.. وكان من قبل ذلك قد شارك فى مؤتمر نزع السلاح الدولى مع صديقه المرحوم الفنان عبدالحليم حافظ عندما اختيرا ممثلاً عن مصر فى هذا المؤتمر والذى عقد فى عام ١٩٥٨.

وكان علينا من قبل الوقوف على المزيد من التفاصيل عن هذا المشوار الثرى أن نقف أيضا أمام بعض ملامح حياة هذا الفنان المتألق من حيث المولد والنشأة والأصل والعائلة.

وكمال الطويل نفسه يحكى لنا عن ذكرياته الأولى فيما يتعلق بدخوله عالم الفن من باب التلحين فيقول : "لعب أبى دوراً كبيراً من دون أن يدرى فى إنضمامى لمعهد الموسيقى، وهو عكس الدور الذى أقوم به عن وعى واقتناع من ابنى "زياد". فمنذ وفاة والدتى وأنا فى ابتدائى، نمت عندى "حتة"

إصـرار علـى عدم الانكسـار، وكل التلاميـذ وقتهـا كـانوا بيعتمـدوا علـى العصبيات كأبناء بلدة واحدة أوعلـى القـوة.. أمـا أنـا فكنـت "سـفروتاً" طويـلاً و"رفيعاً" ومعنديش سلاح غير الموسيقى.

وعندما تخرجت فى الفنون وعملت بالإسكندرية، وكنت أعيش وحيداً فى شقة بمفردى، رغم أن علاقتى بالموسيقى قد انتهت، إلا أنهـا عـادت مرة أخرى حين قررت أن أتعلم الموسيقى فى معهد الأستاذ جمجوم برسوم نظـير رسم قدره ثلاثون قرشاً فى الشهر، وبعد عامين تعرفت علـى الفنـان "رؤوف ذهنى" الذى كان وقتها يعمل سكرتيراً للفنـان محمـد عبدالوهـاب.. كمـا كـان يغنى ويلحن أيضاً، كما تعرفت من خلاله كذلك على عـازف الكمـان الشـهير الراحل "أنور منسى" الذى دعانى لزيارته بمعهد الموسيقى بالقاهرة".

ثم يقول كمال الطويل أيضا عن هذا المشوار الفنى الكبير: ".. وأذكـر واقعة حدثت لى وكانت دافعاً حقيقياً لإقبالى على دراسة الموسيقى بـالمعهد.. هـذه الواقعـة كـان طرفهـا الأسـتاذ محمـد عبدالوهـاب، إذ تسـللت إلـى حجـرة البروفة بالمعهد للقاء أنور منسى أثناء قيامه بالتدريب مع الفرقـة علـى أغنيـة "إتمخطرى ياخيل" من قبل أن تسجلها ليلى مراد فى فيلم "غزل البنات"

وفجأة أوقف عبدالوهاب البروفة ونظر إلى باستنكار، شعرت سـاعتها أنـى غرقان فـى عرقى.. ثم همس "أنور منسى" ببضـع كلمـات اسـتأنف بعدهـا عبدالوهاب البروفة.

أما أنا فخرجت "يافكيك على بره"!. وأعلنت غضبى علـى عبدالوهـاب بعد ذلك وأخبرت هذا الغضب لأنور منسى، وقلت لـه.. أنا ضد هذا السـلوك، وإيه رأيك سوف أدرس موسيقى بحق وحقيقى علشان الموقف ده!.

وفعلاً ذهبت لعميد المعهد وقتها وكان هو الدكتور محمد أحمـد الحفنـى والد الدكتـورة رتيبـة الحفنـى، وكنـت متـأخراً عن موعـد الالتحـاق فرفضـوا

طلبى، ولكن الرجل الذى كان صديقاً وزميلا لوالدى عقد لى امتحاناً خاصاً.. وذكرنى بما كان بينهما.. إذ كان والدى أيام المظاهرات ضد الإنجليز قد قام بتأليف أغنية ذاعت وانتشرت وكان ملحنها هو الدكتور الحفنى نفسه.

وإكراماً لهذه الذكرى التى كانت بين الدكتور وبين والدى ألحقنى بالمعهد.. لتتغير مسار حياتى منذ ذلك الوقت.. ثم التقيت بأربع شخصيات كان لهم أكبر الأثر فى حياتى الفنية وهم شاب نحيف أسمر إسمه "عبدالحليم شبانه".. وآخر خفيف الظل اسمه "إسماعيل... وفتاة عذبة الصوت هى "فايدة كامل" وطالب قيادى النزعة هو "أحمد فؤاد حسن".

* * *

وبالبحث والتنقيب فى الأوراق الخاصة للموسيقار كمال الطويل اكتشفنا أيضا أن هناك دوافع أخرى لدخوله عالم الموسيقى الجميل.. وهذه الدوافع الحميدة قد ذكرها الطويل نفسه حين قال : "يعنى أنا فاكر أننى عندما كنت فى المدرسة الداخلية، وكنت أصغر طالب تقريبا فى المدرسة، وكنت طويلاً ونحيفاً جداً ، بينما زملائى فى الداخلية سنهم كبير لدرجة أن أحدهم إتعين عمدة فى بلدهم وهو فى سنة ثانية ابتدائى..

وكانت أحزاب فى المدرسة، فريق ضد فريق، وأنا رفيع. كما قلت ولست قوياً، وأصغر واحد فى السن، فكان لابد من أن أتخلص من نقطة الضعف هذه.

وحصل بالفعل أننى تخلصت من هذه العقدة فالتحقت بفريق الموسيقى بالمدرسة وقيل وقتها إن صوتى مش بطال، فالجماعة الكبار أخذونى فى جانبهم واعتبرونى مطربهم، وأصبحت من يومها أتمتع بحماية هؤلاء الأقوياء.

ومعنى ذلك أن الموسيقى والغناء كانا سبباً أساسياً للخلاص من نحافة جسمي. ولاشك كانت هناك حاجة أخرى جعلتني أتطلع إلى الظهور، وكانت وسيلتي إلى هذا الموسيقى.. إنما إيه بالضبط دى اللى مش عارفها.

* * *

وبخلاف هذه الدوافع الشخصية كانت هناك ظروف أخرى ساعدت كمال الطويل كثيراً في التقدم بخطوات واسعة في مجال التلحين والموسيقى.. ومن هذه الظروف مثلاً تعرفه على الثلاثي الفني عبدالحليم حافظ وعلى اسماعيل والمايسترو الفنان الراحل أحمد فؤاد حسن. ثم انضم إليهم فيما بعد الشاعر الراحل صلاح جاهين.

وهذه الكوكبة الفنية المتألقة كانت سبيل كمال الطويل للدخول على عالم الأغنية الوطنية وبالتالى الدخول إلى بعض منعطفات تاريخنا السياسى الحديث.

ويؤكد كمال الطويل على ذلك بقوله : "بدأت علاقتى بالأغنية الوطنية عند اختيار عبدالناصر لتولى رئاسة مصر فى منتصف الخمسينيات.. حيث كنت جالساً على إحدى المقاهى بوسط البلد أقرأ كلاماً لأغنية أرسلها لى صلاح جاهين.. بعنوان "إحنا الشعب".. وتقول هذه الكلمات :

إحنا الشعب... إحنا الشعب
إخترناك من قلب الشعب
يافاتح باب الحرية
ياريس ياكبير القلب

وبصراحة – والكلام لايزال لكمال الطويل – لم أكن متحمساً فى البداية لفكر جمال عبدالناصر الذى أعتبره الآن أعظم زعيم أنجبته مصر،

فلحنت الأغنية على القهوة خلال ربع ساعة واتصلت بعبدالحليم وسجلناها فعلاً.

وفى الفترة مابين تولى جمال عبدالناصر والتنحى فى عام ١٩٦٧ قدمنا عشرات الأغانى مثل "مطالب الشعب" و "المسئولية" وغيرهما.. وعن نفسى كنت مستعداً للقبول والاقتناع بمبادئ ثورة ٢٣ يوليو، هناك بشر لديهم قدرة غريبة على الاقتناع بمبادئ ثورة ٢٣ يوليو، وأنا وعبدالحليم وصلاح جاهين اقتناعنا بشخص عبدالناصر إلى أبعد حدود مثلنا مثل أى مواطن عربى..".

ولاشك أن انخراط كمال الطويل فى العمل الوطنى الذى دخله من باب الفن.. كان له جذوره بداخل عقل وصدر هذا الفنان الكبير.. هذه الجذور ظلت تنبت على مر السنوات حتى أخرجت لنا هذا النبات المورق بالفن وبالوطنية فى آن واحد..

وقد حرص كمال الطويل كثيرا على الحديث عن تلك الجذور وعن آثارها فى حياته. فنراه يقول عن ذلك على سبيل المثال : "إن عائلة الطويل لها تاريخ مشرف فى الكفاح الوطنى من خلال حزب الوفد، فعمى عبدالفتاح باشا الطويل كان وزيراً فى وزارة الوفد، ووالدى كان وكيلاً فى وزارة الوفد. أما أنا فكنت كشاب محسوب على الوفد عندما عينت مشرفاً على الموسيقى والغناء فى الإذاعة مع الزميل جلال معوض.

وبعد عامين من العمل فى الفترة من ١٩٥٠ و ١٩٥١. تغيرت وزارة الوفد فتم نقلنا إلى وزارة التموين. ولما انتهت الأزمة عدت مرة أخرى للإذاعة، فعملت على تعيين عبدالحليم كعازف فى فرقة الإذاعة.. ثم عقدت له

لجنة للاستماع، فأصبح من بعدها ذلك الشاب النحيل مطرباً صاعداً على ألحان الشباب وقتها مثل محمد الموجى وعلى "إسماعيل وأنا".

ثم يقول كمال الطويل أيضاً : "وساعة ماقامت الثورة كنت فى "البنسيون".. الملاصق للإذاعة.. وكان ده مسكنى وقتها.. شعرت بالضجيج فى الشارع، هرعت إلى الطريق، ولاأنسى أبدا منظر دبابة أوفى الغالب سيارة مصفحة تسير فى الشوارع وفوقها "عبدالحكيم عامر" ومعه ضباط آخرون بينما كان يحمل فى يده بندقية، ولك أن تتخيل واحداً مطروداً قبلها من الإذاعة وراح وزارة التموين علشان وفدى. وكانت مبادئ الوفد، وهى محاربة الإنجليز والقضاء على التدخل الأجنبى فى حكم البلاد والمطالبة بحقوق العمال ومجانية التعليم والجامعة العربية. وهى نفسها مبادئ الثورة، الواحد كان مشحوناً فأول ماقامت الثورة حسيت كما لو أننا إحنا اللى عملناها".

***

ولكن الغريب فى هذا الأمر أنه لم يشفع لدى رجال الثورة آنذاك وقوف أحد أبناء الوفد القديم إلى جانبهم والتغنى بمبادئهم، حيث تعرض كمال الطويل لوشاية أودت به خارج عمله الأساسى آنذاك.. عندما كتب فيه مدير الإذاعة فى ذلك الوقت مذكرة قدمها بنفسه إلى الرئيس عبدالناصر يتهمه فيها بأنه خطر على الأمن.

وبالفعل تم نقل كمال الطويل بأمر من عبدالناصر إلى وزارة التعليم، رغم ارتباطه وعلى حد قوله بأغانى الثورة كل عام.. ومع ذلك فقد ظل هذا الموسيقار المتميز ورغم كل هذه الصغائر على ولائه للثورة ولعبدالناصر، ولاقتناعه وقتها بأن الفن كان أعظم داعية للدولة وللثورة.

وكان لابد من مكافأة كمال الطويل على حسن استمرارية ولائه للثورة ولجمال عبدالناصر وأيضا باعتباره أحد العاملين النشيطين فى مؤسسة أم كلثوم الناصرية الفنية والإعلامية. فتم اختيار أحد ألحانه الوطنية للسلام الوطنى لمصر بعد فترة ٢٣ يوليو، وهو النشيد الذى غنته أم كلثوم "والله زمان ياسلاحى".. ويقول كمال الطويل عن ذلك : "وعقب إحدى الحفلات التى اقيمت للثورة هنأنى جمال عبدالناصر وبشرنى بفوز السلام الوطنى بجائزة مالية كبيرة وقدرها فى ذلك الوقت ٥ آلاف جنيه".

ثم يستمر قطار التكريم الثورى لكمال الطويل فى انطلاقه، فبعد نجاحه فى تقديم المزيد من الأعمال الفنية الوطنية، وفى إثبات الولاء الثورى واستمرار ذلك الولاء.. تم اختيار كمال الطويل ممثلاً لمصر مع الفنان الراحل عبدالحليم حافظ خلال مؤتمر الشعوب للسلام ونزع السلاح الذى عقد فى مدينة إستكهولم فى عام ١٩٥٨.

وقدم كمال الطويل فى هذا المؤتمر باسم مصر نداء إلى فنانى العالم من أجل المساهمة الايجابية فى تدعيم سلام الدنيا.. كما تم انتخاب الطويل وعبدالحليم عضوين فى اللجنة النقابية الدائمة داخل المؤتمر.

***

وإزاء هذا التأييد المطلق من جانب كمال الطويل للثورة ولجمال عبدالناصر.. كان لابد من حدوث تغيير كبير فى موقع هذا الفنان على خريطة الأعمال الوطنية والسياسية إزاء ذلك التغيير الذى حدث بمصر من بعد وفاة جمال عبدالناصر. وقد واجه آنذاك نفس الموقف الذى واجهته.. بل وعاصرته سيدة الغناء العربى.. عندما أصابها نفس التغيير..

ويحدثنا كمال الطويل نفسه عن ملامح ذلك التغيير بقوله : " وبعد أن تولى السادات حكم مصر. توارى السلام الجمهورى الذى لحنه كمال الطويل ليحتل مكانه نشيد "بلادى.. بلادى".. وقد قيل لى والله أعلم.. إن الرئيس عندما كان يجرى مباحثات السلام مع إسرائيل وكانت أحد الأسئلة الموجهة إليه : كيف تبحث عن السلام، وشعار بلدك يدعو إلى الحرب "والله زمان ياسلاحى".

والواقع أن علاقتى بالسادات وعلى الرغم من حبى له وقت أن كان رئيساً لجريدة الشعب، كان يحتضن المواهب الجيدة ويدفعها بكل الوسائل الممكنة، وكان أنور السادات يحضر تلك الجلسات، ولاحظنا مدى ظرفه كشخص اجتماعى.. إلى أن حدثت فى ظل حكمه دعوة الناس لأن يكسبوا مايشاءون وبلا قيود.. فتحولت دعوته إلى "سعار".. والناس قد ابتعدت عن القيم والمبادئ والأخلاق وأغفلوا حق البلد وصار همهم الوحيد الكسب بأى طريق".

ثم يقول كمال الطويل أيضا : "ومنذ هذا التاريخ تغيرت وجهة نظرى بالنسبة للسادات، وهو كان بيشعر بذلك ، حتى حين طلب منى أن أقدم ألحاناً وطنية فى عهده، لم أقدم سوى "خلى السلاح صاحى". - و"مصر هى أمى". وهى أغنيات لاعلاقة لها برئيس الجمهورية بذاته ولكن بحب مصر فقط".

ولاشك أن الموسيقار الكبير كمال الطويل.. قد توج مشواره الفنى والوطنى بالدخول إلى حياتنا السياسية مشاركاً أصيلاً فى مجرياتها وقد وجد أن خير سبيل لتحقيق تلك المشاركة هو الدخول فى لعبة الأحزاب ثم الدخول أيضا إلى البرلمان.

ورغم انتماء عائلته إلى حزب الوفد القديم.. إلا أنه فضل وكما سبق وذكرنا أن يخوض تلك التجربة من خلال أحد الأحزاب التى ظن أن مبادئها تقترب من مبادئ الزعيم الذى رحل وكان يحب تلك المبادئ!.

ومن أجل تحقيق تلك الخطوة. فقد تقدم بأوراق انضمامه لحزب التجمع عام ١٩٨٧، ولولا خشية كمال الطويل من ارتباطه بالشيوعية والشيوعيين لظل من أنصار ذلك الحزب ولإستمر عضواً به يمارس من خلاله أعماله ونشاطه السياسى.

وما هى إلا أيام فقط.. حتى اتجه كمال الطويل بفكره وعقله ونشاطه السياسى صوب حزب جديد هو حزب العمل، لاشئ إلا لأنه عرف بأن رئيس حزبه الجديد كان على خصام سياسى مع الرئيس السادات.. وعلى حد اعتراف كمال الطويل نفسه فإنه رغم ذلك لم يحضر فى هذا الحزب سوى اجتماعاً سياسياً واحداً عقده الحزب بمقره القديم بحدائق القبة.

وماهى إلا أيام أخرى، حتى قرر كمال الطويل العودة إلى بيته القديم وبيت عائلته سياسياً وفكرياً.. إلى حزب الوفد والذى إستمر فيه عضواً نشطاً حتى دخل تحت مظلته.. تجربة أول انتخابات برلمانية ونجح فيها.. فأخذ طريقة إلى البرلمان الذى ظل به عضواً نشطاً أيضاً حتى انتهت الدورة البرلمانية ومن بعدها كفر.. الطويل بالسياسة وبالعمل بها.. وبالتالى قرر ألا يعود إليها مرة أخرى!.

ومن بعد هذه التجربة.. ظل كمال الطويل يكرر لنا الأسباب التى جعلته لايخوض هذه التجربة.. مرة أخرى فقال فى إحدى مقابلاته الصحفية : "لقد كنت وفدياً، ومازلت، وعندما ألغيت الأحزاب فى ٢٣ يوليو صرت داعية لعبدالناصر عن قناعة كبيرة، وعندما عادت الأحزاب عدت لبيتى

الوفد.. لأن مبادئه تماثل مبادئ ثورة يوليو، ولما يجد الإنسان خللاً فى المجتمع يبحث عن بديل يحقق تلك العدالة المنشودة. وأنا أعتقد أن كل فنان وأديب فى مصر بداخله فكر تقدمي وإحساس بالعدالة والرغبة القوية فى أن تسود تلك العدالة.. لقد إنضممت لحزب التجمع. ثم اختلفت معهم فكرياً.. فساندت حزب العمل فى أشد محنته مع الرئيس السادات.. وأرسلت وقتها برقية لتأييد رئيس الحزب.. ولكن لما عاد حزب الوفد ليشارك بدوره الفعال فى الحياة السياسية كان من الطبيعى أن أعود إليه".

وفى مجلة أخرى قال عن ذات التبرير : "الحقيقة أن كل فنان أو مثقف له موقف سياسى.. أما حكاية الفن والسياسة والأحزاب فهذه قضية مطروحة منذ زمن طويل. خاصة وأن المثقفين والفنانين هم طليعة المجتمع. وكل فنان تكون له رؤية أكثر شمولاً وأكثر إبداعاً.. وأكثر حلماً.. إنها فى الحقيقة خليط بين الأحلام والفكر والإبداع، ولكن دخولي إلى ميدان السياسة.. مثل أى فنان يتقدم للعمل السياسى يشعر بأنه بداخله أشياء يود لو أنها تترجم إلى مساهمة فعلية فى صنع الحياة.. وهذا لايتناقض مع دور الفنان".

***

ويقترب بنا الفنان الموسيقار الطويل أكثر وأكثر من إلقاء الضوء المبهر على تلك التجربة السياسية والوطنية الفريدة والتى خاضها سياسياً حزبياً.. فقال على سبيل المثال مؤكداً على ماذكره من قبل : أننا عندما أقيمت المنابر، وقبل عودة حزب الوفد، نادى مجموعة من الفنانين أذكر منهم المخرج الكبير صلاح أبوسيف بالانضمام إلى منبر التجمع، وكلمة التجمع براقة وحلوة.. وهى تعنى كل الوطنيين.

ولكن عندما دخلت التجمع ترامى إلى ذهنى واذنى أن الماركسيين هم الذين يحكمون هذا التجمع.. ولهذا وفى أول جلسة سألت لطفى الخولى ثم أكدت على الجميع بأننى لست ماركسياً رغم أن لى أصدقاء عديدين من الماركسيين. ورغم أن الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله أكد لى خلال تلك الجلسة أن الماركسيين لايمثلون سوى ١٠٪ فقط داخل الحزب.. إلا أننى اكتشفت بعد ذلك أن الماركسيين هم الذين يتحكمون فى أمور الحزب، وعلى الفور آثرت الابتعاد".

ورداً على سؤال حول وجهة نظره بسبب الانسحاب من حزب العمل أيضا قال كمال الطويل : "حزب العمل يمثل امتداداً لفكر مصطفى كامل ومحمد فريد، وحزب مصر لفتاة، وأنا بطبيعة تكوينى السياسى وفدى. وفى تقديرى أن الوفد وفكر عبدالناصر ملتصقان.. لأن فكر الثورة هو امتداد لفكر الوفد الذى كان يحارب الإنجليز وفساد السراى، ويدعو للدستور ومجانية التعليم وغيرها من المبادئ التى قامت عليها هذه الثورة.

ولهذا عندما جاء جمال عبدالناصر وقفنا جميعا معه "ليس فقط بسبب سحر الأفكار التى تبناها، ولكن أيضا بسبب سحر أفكاره وشخصيته!.. إنك تشعر دائما أن هناك شيئاً ما فى وجدانك يجعلك تحب عبدالناصر وتصدق آماله.. ولكن للأسف كانت هناك تجاوزات من بعض الملتصقين به.. ثم جاء السادات وتمزقت مصر.. وفقد الناس الثقة فى النظام!![1] .

* * *

ولو رجعنا لتتبع وقائع تلك التجربة الثرية التى عاشها كمال الطويل تحت قبة البرلمان نائباً عن حزب الوفد.. سوف نكتشف أن الخطر كان يقف

---

[1] جريدة الأهالى الصادرة فى ١٩٩٠/١/٣

له بالمرصاد ومعانداً لتلك التجربة رغم أهميتها.. إذ حدثت بعض التجاوزات والوقائع التى أسهمت فى إنهاء تلك التجربة من دون تدخل كمال الطويل نفسه!.

وأولى هذه الوقائع هو اكتشاف حالات تزوير عديدة فى الكثير من اللجان الخاصة بحزب الوفد فى انتخابات عام ١٩٨٧.. وهى الانتخابات التى خاضها ونجح فيها كمال الطويل. مما جعل رجال القانون والدستور من المنشقين عن حزب الوفد يلجأون إلى القضاء لإثبات بطلان هذه الانتخابات، وبالفعل تمكنوا من استصدار أحد الأحكام القانونية الهامة من المحكمة الإدارية العليا ببطلان تلك الانتخابات فى بعض الدوائر.. ثم المطالبة بإلغاء هذه الانتخابات كلها!.

وعلى الرغم من استمرارية عقد جلسات مجلس الشعب.. إلا أن الإشكالات القانونية ظلت تلاحقه.. حتى إبريل من عام ١٩٩٠ عندما قررت المحكمة الإدارية العليا فى حكمها النهائى بإلغاء الإنتخابات البرلمانية فى ٧٨ دائرة بعد ثبوت حالات التزوير بها.

عندئذ أصدر اللواء محمد عبدالحليم موسى وزير الداخلية الذى اختير خلفاً للواء زكى بدر القرار رقم ٨٩١ بإلغاء نتائج انتخابات مجلس الشعب.

وبناء على هذا القرار أعلنت الصحف فى ١٩ يونيه عام ١٩٩٠ أن الحكومة قررت بالفعل حل مجلس الشعب، والانتخابات الجديدة فى أكتوبر.

وكان من الممكن أن يمر هذا الحادث بسلام فى حياة كمال الطويل.. الذى كان على استعداد لخوض التجربة الثانية بعد حل مجلس الشعب.. إلا أن العقبة الجديدة جاءته هذه المرة من داخل حزب الوفد نفسه فقد قرر الحزب مع بقية أحزاب المعارضة الأخرى عدا حزب التجمع مقاطعة

الانتخابات الجديدة، وهدد رئيس حزب الوفد كل الأعضاء الذين سوف يخرجون على هذا القرار بالفصل من عضوية الحزب.

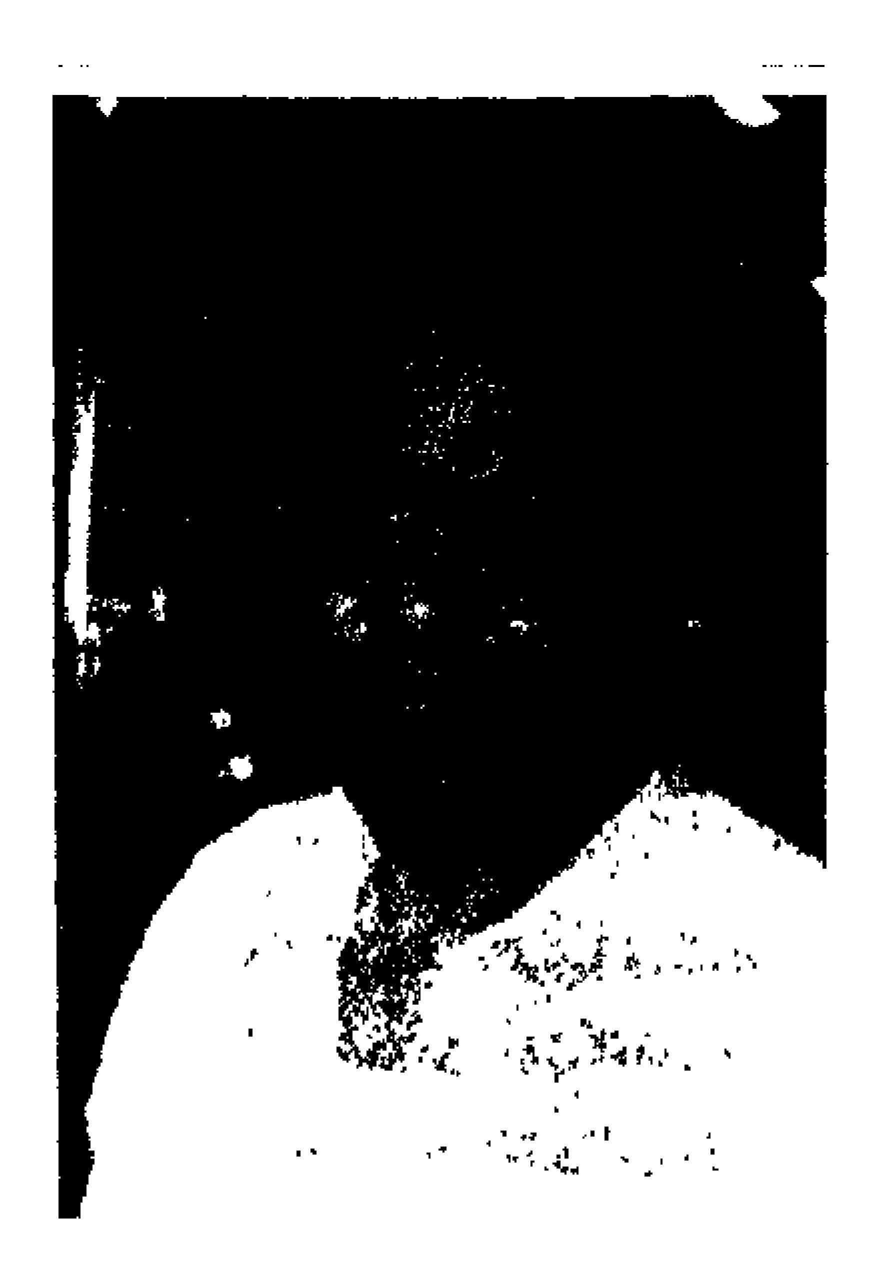
وهكذا اجريت الانتخابات الجديدة فى أواخر نوفمبير من عام ١٩٩٠ بدون أحزاب المعارضة وبالتالى بدون الموسيقار كمال الطويل.

* * *

وفى تعليق أخير لكمال الطويل.. على رحلته السياسية قال :

"لقد تركت الفن من أجل السياسة، وطلاقى السياسة قريبا ذلك لأن الفنان هو بطل عمله، ويكفى أن يكون صادقاً لكى يصل إلى كل الناس.. لكن السياسى يبدو أنه يحتاج إلى مواهب أخرى فالواقع السياسى كما جربته اتضح أن لعبته هى أقرب إلى الخداع، إننى كفنان حساس سأعود إلى محرابى وأنا محاصر بطوفان من هوجة الأغانى إياها.. فوداعاً للسياسة.. وأهلاً بالفن".

(١٣) حمدى أحمد



الفنان الذى وقف فى صفوف المعارضة يهاجم الحكومة

قد يظن البعض منا أن مسيرة الفن فى مصر توقفت عند حدود بعينها فيما يخص الأدوار القومية.. إلا فى بعض المناسبات... ولذلك فقد تصور هؤلاء أن أواصر هذا الفن قد انقطعت مع الوطنية.. حيث لم يعد مشاركاً أصيلاً فى ترجمة أوصنع الأحداث التاريخية التى تمر بها أمتنا اليوم، أو على الأقل تحول هذا الفن إلى نوع من الفن المسيّس الذى لم يعد يقوى على الجهر.. بالخلاف مع أولى الأمر مهما كانت أخطاؤهم!.. وأصبح هدف العاملين به الأول والأخير هو مجرد إرضاء نوعية معينة من الناس، والوقوف إلى جانبهم بحق أوبغير حق!.

ولكننا لوسلمنا بهذا الرأى أو بهذا التصور فسوف نغلق كل صفحات التاريخ المضيئة فى وجه ذلك الفن، ووجه كل العاملين به.. كما سنظل نقرأ بالليل والنهار الصفحات السابقة التى حوت كل تفاصيل تلك المواقف الوطنية المتميزة والتى سجلها أساتذة الفن أيام زمان سواء فى مجال بث الوعى الوطنى أو حتى فى مجال ممارستهم السياسية.

ونقول لأصحاب هذا الرأى، إن اختلاف الأزمنة وكذلك اختلاف أحداثها، هى التى ولدت لديهم هذا الإحساس، ومن أجل الإنصاف لابد من وضع تلك الظروف واختلافها فى الحسبان حين ننظر إلى دور الفن الآن واختلاف هذا الدور عن أيام زمان!.

ولاشك أن تغيير صورة المجتمع، وإرتباط ظروفه برحلة الفنان سواء فى مجال بعث الروح الوطنية أو فى مجال إقباله على العمل السياسى، قد ساهم كثيراً فى تغيير تلك النظرة.

وكما هو معروف لدينا جميعاً فإن أحداث التاريخ ماهى إلا كل لايتجزأ سواء ماكان فيه من أحداث ساخنة أوباردة، وسواء أدت إلى نتـائج فوريـة أو ظلت تغلى تحـت الرمـاد!. ورغـم كـل مـامر بـه الفن والفنـان خـلال الحقبـة السـابقة.. فإن الفن سيظل مشاركاً وبقوة فى هذه الأحداث، كما سـيظل رجالـه من أهل الفن من أوائل المشاركين فى كتابة التاريخ.

ونظراً للظروف السابق الحديث عنها وتغيرها بتغير المجتمع نفسه فقد انحصـر دور الفن فـى بعث الوطنيـة المصريـة.. وإن اتجـه إلا قليـلاً ناحيـة الدعوة إلى القومية العربية.. وعوضاً عن ذلك فقد اتجه الفنان بكل قوته إلـى العمل السياسى سواء بطريق مباشر أوغير مباشر. وكان الفنان كثيراً مايبادر مـن تلقـاء نفسـه للمشـاركة فـى هذه الأحـداث السياسـية التـى انحصـرت فـى المصائب والنكبات التى مربها مجتمعنـا.. أو فـى التجربـة الديمقراطيـة التـى بدأت عندنا على استحياء والمتمثلة فى المشـاركة فـى الانتخابـات سـواء من خلال الأحزاب أو من خارجها.

ولاشك يقف فى طابور هؤلاء الفنانين الذين حاولوا المساهمة فى صنع أحـداث بلادهـم الوطنيـة والسياسـية الفنـان القدير حمـدى أحمـد الـذى خـاض تجربة ثرية اتضحت معالمها فـى مشـواره السياسـى الـذى ارتبـط بـالأحزاب وبالبرلمـان. كمـا ارتبطـت كذلـك باختيـار الوقـوف أو الجلـوس فـى صفـوف المعارضة لمناقشة ومهاجمة الحكومة!.

ففى عام ١٩٧٩ تمكن وبإقناع جماهيرى غير مسبوق مـن أن ينـتزع أحد مقاعد مجلس الشعب ممثلاً شعبياً وسياسياً عن حزب العمل أحد أحـزاب المعارضة فى مصر. وقد ظل بهذا الموقع السياسى طيلة أربع سنوات كـانت

هى كل فترة المجلس الشرعية وفقاً للدستور حتى انتهت الدورة البرلمانية فى عام ١٩٨٤. ثم أعاد التجربة مرة أخرى عندما قرر مواصلة العمل السياسى فى عام ١٩٨٧. فرشح نفسه عن دائرة بولاق مستقلاً، وكان قد رفض إعادة تجربته السياسية فى الدورة التالية فى عام ١٩٨٤ على إثر اعتراضه على انتخابات القوائم الحزبية.

ليس هذا فقط.. بل ظل الفنان حمدى أحمد إلى جانب ذلك عضواً نشطاً بحزب العمل المعارض طيلة أربع سنوات أيضاً.. ثم قدم استقالته من الحزب لأسباب كثيرة سوف نقف على تفاصيل بعضها.. وحتى عندما فشل فى دخول البرلمان مرة ثانية فى عام ١٩٨٧، ابتعد كلية عن الحياة السياسية وعاد من جديد إلى حياته الفنية التى انقطع عنها قرابة ٥ سنوات، متفرغاً للعمل السياسى. ولمدة ٥ سنوات أخرى، ظل "حمدى أحمد" بعيداً عن الحياة السياسية حتى قرر العودة إليها، وكانت هذه المرة من باب الفن الواسع. وذلك عندما قرر أن يخوض الانتخابات على منصب "نقيب المهن التمثيلية".

وبحسبة عددية بسيطة نكتشف أن حمدى أحمد قد قضى داخل حياتنا السياسية أكثر من عشر سنوات، وكان من قبل قد مضى عشرين عاماً داخل الحياة الفنية.. ومما لاشك فيه أن هذا المشوار الطويل قد أصبح يستحق منا العديد من الوقفات نتلمس خلالها تفاصيل ذلك المشوار.. كما أصبح يستحق منكم المزيد من المتابعة.

قال الفنان حمدى أحمد أن اسمه بالكامل هو "حمدى أحمد محمد خليفة" وأنه من مواليد ٩ نوفمبر ١٩٣٣، وهو متزوج من سيدة من أهالى الصعيد وله ولد وبنتان.. تخرج من معهد الفنون المسرحية وكلية التجارة فى عام

١٩٦١.. ثم عمل فى بداية حياته الفنية فى مسرح التليفزيون.. كما بدأ حياته على المسرح بأداء أدوار صغيرة فى مسرحية "شئ فى صدرى".. ثم قام بدور صغير فى مسرحية "الأرض".. وقد قال فى هذه المسرحية على حد قول أحد النقاد "١٤ كلمة بالعدد" فى الفصل الثالث. كما ظل يتدرج فى الأدوار حتى بدأ نور الدمرداش يستعد لإخراج "أدهم الشرقاوى" على المسرح.. على الرغم من الهجوم الذى شنه البعض على هذا الاختيار، فقد صمم على موقفه واختار نور الدمرداش حمدى أحمد لهذا الدور الذى كان يمثل بطولة المسرحية.

وبعد نجاحه فى هذه المسرحية، حيث أشاد به النقاد.. خلع حمدى أحمد الجلباب والطاقية وإرتدى البدلة والطربوش ليمثل شخصية جديدة لم تسند إليه من قبل، وكانت تلك هى شخصية "محجوب عبد الدايم" الذى تعلم من حياته وظروفه القاسية فى ظل الفقر أن يكون خلالها انتهازياً لايفكر إلا فى نفسه، وقد مثلها بصدق وإحساس فنى مرهف فى فيلم "القاهرة ٣٠".. وكانت تلك بداية حقيقية لمشواره الفنى الناجح سواء فى السينما أوفى المسرح.

وتقول سطور أخرى عن بداية حياة حمدى أحمد الفنية، أنه قد أحب التمثيل وهو فى سن الشباب حتى أنه قد رفض دخول مدرسة ثانوية ليس بها مسرح أو فريق تمثيل!. وكانت سعادته بالغة حين دخل المدرسة التوفيقية، وفيها أصبح رئيساً لفرقة التمثيل.

وفى عام ١٩٥٦ وبعد حصوله على الثانوية العامة تقدم للالتحاق بكلية التجارة، فى الوقت الذى تقدم فيه لمعهد التمثيل.. وكانت الدراسة بالمعهد مسائية. وقد استمر يحقق نجاحه فى المجالين على السواء حتى عام ١٩٥٨..

عندما تعارض امتحانه فى كلية التجارة مع امتحانه بمعهد التمثيل، ففضل المعهد وترك كلية التجارة.. عندئذ خاصمته والدته، ولم تكلمه إلا عندما التحق ممثلاً بمسرح التليفزيون.

***

وطوال مشوار حياة الفنان حمدى أحمد الذى بدأ فعلياً فى عام ١٩٦١ ارتبط فى العديد من أعماله الفنية بالعديد من قضايا الوطنية والقومية، حيث عبر بصدق عن تلك القضايا ، كما قدم من خلالها أدواراً عبرت عن الشخصية المصرية . ومثالا لذلك فقد صورلنا الفلاح المصرى بإمكانياته المحدودة ومتاعبه اليومية، كما صور لنا الطالب والموظف البسيط .. واستطاع كذلك أن يلفت إليه الأنظار بملامحه المصرية الأصيلة وبأدائه المتمكن الصادق المعبر عن مختلف الشخصيات الموجودة فى مجتمعنا، فهو يرى أن رسالة الفنان، هى الارتباط بحياة الناس والتعبير عن واقعهم وقضاياهم ومشاكلهم من أجل الوصول إلى الحلول المثلى.

وخلال هذا المشوار الفنى الطويل قدم الفنان حمدى أحمد عشرات المسرحيات والأفلام والمسلسلات التليفزيونية. وكان من أهم أدواره المسرحية التى أجمع عليها النقاد.. دور الشاويش عبدالله فى مسرحية "الأرض" تأليف عبدالرحمن الشرقاوى وإخراج سعد أردش.. ثم دوره فى مسرحيات "الرجل الذى فقد ظله" - "والشيخ رجب" لعبدالرحمن الشرقاوى أيضا. ثم دوره فى مسرحية "أدهم الشرقاوى" ومسرحية "النسر الأحمر".

أما عن أشهر أدواره فى السينما، فكان ولايزال دوره فى فيلم "القاهرة ٣٠".. الذى حقق نجاحاً كبيراً وباهراً وحصل عنه على الجائزة الأولى فى

عام ١٩٦٧ من جامعة الدول العربية فى مسابقة الأفلام العربية.. كما حصل على جائزة أخرى عن دوره فى فيلم "أبناء الصمت".. وهو الفيلم الذى يعتبره النقاد من أحسن الأفلام التى عبرت بصدق عن حرب أكتوبر.

ومن أهم أدواره كذلك على الشاشة الفضية.. دوره فى فيلم "واحد فى المليون" من إخراج أشرف فهمى.. على الرغم من أنه كان من الأدوار الصغيرة.. حيث لم يظهر إلا فى ثلاثة مشاهد فقط.. بجانب ذلك هناك دوره المتميز فى فيلم "فجر الإسلام" "وفيلم" حب تحت المطر".

***

وحين نعاود الحديث عن التجربة السياسية والوطنية فى حياة الفنان "حمدى أحمد".. نكتشف أن ذلك المشوار قد امتزج فى بدايته بالعمل الحزبى والعمل البرلمانى فى آن واحد.. وكل من الاتجاهين كانا يمثلان الالتحام بالجماهير والنزول بالفن إلى الشارع وإلى الحارة.. وقد اتسمت تجربة هذا الفنان الكبير بالجرأة وبالوطنية.. ذلك لأنه فضل الانخراط فى سلك المعارضة والوقوف فى خدمتها ضد الحكومة، بل وضد الحزب الحاكم!. وكان هدفه الأول من وراء ذلك أن يقدم رؤيته السياسية والتى كانت تعتمد فى المقام الأول على العمل الوطنى والجماهيرى المرتبط بالأداء المخلص لخدمة الناس وبالتالى خدمة الوطن.

كما شهدت تجربة حمدى أحمد السياسية داخل حزب العمل نبوغاً سياسياً كبيراً بدليل أن المهندس إبراهيم شكرى رئيس الحزب إختاره بشكل شخصى على رأس قائمة الحزب لخوض انتخابات عام ١٩٧٩ البرلمانية ممثلاً للحزب عن دائرة بولاق. وقد نجح فعلاً فى هذه التجربة، وفى هذه

الانتخابات، وبالتالى دخل لأول مرة عضواً فى مجلس الشعب، كأول فنان مصرى فى العصر الحديث يخوض تلك التجربة بنجاح!.

واستمر الفنان حمدى أحمد عضواً برلمانياً تحت لواء حزب العمل الفترة البرلمانية كلها.. إلى أن انتهت هذه التجربة فى عام ١٩٨٤.. وذلك على اثر خلاف سياسى وقع بينه وبين بعض أعضاء حزبه، قدم على اثرها الفنان حمدى أحمد استقالته من حزب العمل فى ١٦ من مارس عام ١٩٨٣، أى قبل نهاية الموسم التشريعى والبرلمانى بعدة أشهر.. إلا أنه قد ظل على ولائه لحزب العمل حتى نهاية الفصل التشريعى لعام ١٩٨٤!!.

* * *

ولقناعة هذا الفنان بدوره الوطنى سواء داخل الأحزاب أو خارجها. فقد كان يحدوه الأمل فى الاستمرار داخل العمل السياسى من بعد إبتعاده قرابة ٥ سنوات عن العمل الفنى. لذلك قرر إعادة ترشيح نفسه فى انتخابات عام ١٩٨٧. وإن كان قد رفض أن يقوم بهذه الخطوة فى الانتخابات التى لحقت بالانتخابات البرلمانية التى تلت تجربته الأولى، وكان السبب فى إمتناعه عن المشاركة فى هذه الانتخابات هو اعتراضه على انتخابات القائمة.

وفى هذه المرة قرر ترشيح نفسه عن حى بولاق ولكن بعيداً عن الأحزاب.. إذ اختار طريق المستقلين مع أنه كان يستطيع أن يركن هذه المرة إلى حزب قوى آخر مثل حزب الوفد أو الحزب الوطنى الحاكم!، وكما فعل غيره من المنشقين على أحزاب المعارضة.

ويبدو أن تجربته الأولى داخل حزب العمل، اضطرته للتفكير كثيراً من قبل تقديم المزيد من النشاطات الحيوية فى مجال عمله السياسى بهدف

خدمة الجماهير بشكل مباشر من دون اللجوء لوساطة الأحزاب إيماناً منه بدور الفنان في حياة الإنسان البسيط.

وحتى عندما لم يوفق في هذه الانتخابات قرر في عام ١٩٩٣ أن يخوض انتخابات من نوع آخر لخدمة زملاء المهنة، وهي إنتخابات نقابة المهن التمثيلية!.

* * *

ولاشك أن الوقوف على تفاصيل هذه التجربة الوطنية والسياسية التى خاضها ممثل قدير مثل حمدى أحمد من خلال ماذكره هو شخصياًعنها سوف يوضح لنا العديد من النقاط التى قد تكون قد عميت علينا.. أوربما أغفلناها عن غير عمد.

وقد قال عن تجربته الحزبية : "لاأستطيع أن أزعم أننى سياسى محترف، أو أن السياسة مهنتى، أو أنها مرض إصبت به، لكننى بمنتهى الصدق، أقول إنه وبعد تجربة الاتحاد الاشتراكى والمنابر، ثم التحول إلى الأحزاب، كان لابد لكل مواطن أن يشارك.. وأنا شخصياً وجدت طابوراً يقف أمام الحزب الوطنى الديمقراطى وكان طابوراً آخر صغيراً أمام بقية الأحزاب.

وإيماناً منى بضرورة تواجد صيغة ديمقراطية، ووجود الرأى والرأى الآخر، آثرت أن أنضم إلى حزب أشعر أنه قريب من أفكارى.. ومما أريد تحقيقه لبلدى.. واخترت حزب العمل بعد أن قرأت برامج كل الأحزاب.. لقد اخترته لتاريخه الطويل من أيام مصر الفتاة والحزب الاشتراكى. وكان اعتقادى أن مصر هى طائر، والطائر لايستطيع أن يحلق بجناح واحد، ولكن

لابد من جناحين.. وهذان الجناحان هما الرأى والرأى الآخر.. وبهذين الجناحين يستطيع أن يحلق طائر الحرية، وهكذا دخلت حزب العمل".

وأضاف حمدى أحمد عن نفس الموضوع : "وبالطبع فى البداية لم تكن الأحزاب قد وقرت فى نفوس الناس، وعندما رشحت نفسى لعضوية مجلس الشعب نجحت، نجحت بشعبية وجماهيرية حمدى أحمد الفنان.. ولا أستطيع أن أزعم أن الناس انتخبتنى كحزب عمل اشتراكى، ويجب أن نكون واضحين.. وهكذا ذهبت إلى مجلس الشعب.. وبالطبع كنت قليل الخبرة بالنسبة للعمل البرلمانى مثل أى مرشح جديد، وانتظرت أن تقوم قيادات الحزب بإعداد المطبخ السياسى الذى سأعمل من خلاله.. والمطلوب منى فى مجلس الشعب أن أناقش أمورا سياسية واقتصادية وكذلك الحياة العامة والقوانين.. وليس بالضرورة أن يكون النائب موسوعة تفهم فى كل ذلك. لكن المفروض أنه دور الحزب فى مجلس الشعب.. لكننى ظللت أنادى داخل الحزب، وأسألهم عن رأيهم أكثر من مرة، ولكن لم يتجاوب أحد. وحتى عندما سألت أحد قيادات الحزب الكبيرة، فتح لى درج مكتبه قائلاً : انظر فى الدرج، لايوجد شيء.. لايوجد حزب.. أنتم الحزب!!.

***

ويدخل بنا الفنان حمدى أحمد فى صلب خلافاته مع حزب العمل كبداية ونهاية لخروجه الأخير من حياتنا السياسية.. فيقول :

".. وهكذا بدأت محاولاتى الفردية واجتهاداً برأيى الشخصى.. يعنى بالبلدى... "لوحدى" مثل طرزان.. وفى مرة اتفقنا فى الحزب قبل مناقشة قانون الصحافة فى مجلس الشعب، على أن أرفض القانون من حيث المبدأ..

لكن نناقش مواده.. وهكذا سهرت الليل أقرأ المواد، وأستمع لمناقشتها.. ودخلت المجلس صباح اليوم التالى، وقدمت ورقة تفيد بأننى أطلب مناقشة مواد معينة فى مشروع القانون.. ووقف رئيس حزب العمل يعلن رأى الحزب من حيث المبدأ.. ورفض القانون.. لكن فوجئت بهم بعد ذلك يطلبون منى أن أنسحب قبل مناقشة المواد.. كيف ذلك؟!.. لقد اتفقنا على مناقشة المواد قالوا.. سوف ننسحب.. هكذا، قرار مفاجىء داخل قاعة مجلس الشعب.

وفى مرة – والكلام لايزال لحمدى أحمد – اتفقنا على أن نرفض بيان الحكومة.. لكن فى مجلس الشعب وقف نائب من الحزب يقول : أنا بأشكر الحكومة. فسألتهم : كيف يشكر زميلنا الحكومة. ونحن بعد دقيقة وحسب اتفاق الحزب، سوف نرفض هذا البيان؟!. وكان الرد الأغرب عندما قالوا : معلش مافيهاش حاجة.. وبصراحة حدثت لى لخبطة.. والحقيقة أننى نجحت فى الانتخابات البرلمانية بشعبيتى، وليس لحزب العمل.. فبدأت أبحث عن دور، وكفنان أنشأت لجنة للثقافة والفنون بالحزب، حاولت مناقشة قضايا الثقافة فى مصر من خلال اللجنة.. ووجهت الدعوة لكل المثقفين لحضور ندواتى بنقابة الصحفيين وعملت ندوتين ناجحتين عن المسرح والسينما وحضرها المهندس إبراهيم شكرى رئيس الحزب، لكننى فوجئت بأشياء غير معلنة، كأن يقال من تحت لتحت : فنون إيه وثقافة إيه.. إحنا مالنا ومال الحاجات..دى!!".

* * * *

ثم يقترب بنا أكثر وأكثر الفنان حمدى أحمد من قصة انفصاله عن حزب العمل.. فيقول : ".. وذهبت إلى معظم القرى المصرية فى مؤتمرات

الحزب. وفي أسيوط.. وهناك اعتدى علينا بعض الناس وفشل المؤتمر، وللأسف لم يعلن الحزب موقفه تجاه ذلك. وبسبب اشتغالي بالسياسة خاصة ارتباطي بحزب العمل. فقد توقف عملي كلية فى الإذاعة والتليفزيون أوالمسرح طوال ٤ سنوات، وسألت المسئولين فقالوا لايوجد أى شيء.. وهذا ممكن جداً أن يكون المخرجون أنفسهم امتنعوا عن طلبي للعمل اعتقاداً منهم بأنني مشغول في عضويتي لمجلس الشعب. ورغم ذلك فقد حاربوني في المؤتمر العام السنوى للحزب عندما اختاروني أمينا للقاهرة.. وأنا أعلم أنني قد تحولت لمجرد "لافته".. وكنت قد قدمت أكثر من استقالة من أمانة القاهرة، وفي كل مرة كان المهندس إبراهيم شكرى يضع الاستقالة فى جيبه على وعد بمناقشتها لكن ذلك لم يحدث.. ومرة أخرى طلبني المهندس إبراهيم شكرى الذى استمع لى، لكنني أيضا خرجت من عنده صفر اليدين. وتكرر نفس الشيء مع الدكتور حلمي مراد فى منزل المرحوم أحمد حسين، والغريب ونحن على أبواب الانتخابات لم يسألني أحد عن تصورى أواقتراحاتي بالنسبة للمعركة الانتخابية".

***

وإذا ماتركنا ما سجله الفنان حمدى أحمد عن علاقته السياسية بحزب العمل، وأسباب خروجه من الحزب. وقلبنا في أوراق التاريخ التى سطرتها صحف هذه الأيام عن مشوار حياة حمدى أحمد الوطنية والسياسية، سوف نكتشف أن هذه التجربة قد احتلت آنذاك جانباً كبيراً من اهتمامات وسائل الإعلام خاصة ما كان يتعلق منها بموضوع الإستقالات الجماعية التى هزت حزب العمل على أثر خروج العدد الكبير من الأعضاء تضامناً مع الفنان حمدى أحمد. وقد نشرت العديد من الصحف القومية بهذه المناسبة العديد من

المقالات التى كتبها بعض الأعضاء والمثقفين عن الحزب. ولم يكن الفنان حمدى أحمد بعيداً عن موضوع هذه المقالات، كما أن معظم موضوعاتها كانت تدور حول منصب الأمين العام للحزب والذى كان يتولاه فى ذلك الوقت الدكتور محمد حلمى مراد. وقد انحصر توقيت هذه المقالات فى أوائل عام ١٩٨٤. وعلى أية حال.. فقد انتهت هذه المعركة الإعلامية فى غير صالح حزب العمل، وفى غير صالح الأعضاء المنشقين، ذلك لأن الانتخابات البرلمانية الجديدة كانت على الأبواب.

ولقد رأينا أن خير ختام لهذه الجولة الوطنية والسياسية والفنية فى مشوار حياة الفنان حمدى أحمد.. نشر بعض ماجاء فى آخر حوار صحفى أجرى معه عندما قرر ترشيح نفسه للانتخابات البرلمانية فى عام ١٩٨٧.. والهدف الرئيسى من وراء نشر تلك الكلمات هو الوقوف على آخر ماوصلت إليه الأفكار السياسية داخل نفس حمدى أحمد، على الرغم من عدم توفيقه فى تلك الانتخابات.

قال حمدى أحمد فى هذا الحوار بالنص رداً على سؤال عن تجربته السياسية الأولى : "شاركت فى إرساء تجربة الأحزاب وإنجاحها، غيرت نظرة الناس للفنان بعدما كانوا يعتقدون أنه إنسان مرفه فوجدونى إلى جانبهم فى الحارة والأزقة بحثاً عن حل لمشكلة المجارى وإيواء من تهدمت بيوتهم".

ورداً على السؤال عن أسباب عدم ترشيح نفسه فى عام ١٩٨٤ قال: "لم أرض لنفسى خوض تجربة انتخابات القوائم الحزبية التى إذا لم تكن فيها.. فأنت بره!. لذلك رفضت هذا الأسلوب، عندما عادت النتخابات الفردية أتيحت لى الفرصة".

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

* **المقدمة** ٧

...(١) سيد درويش
الزعيم الفنى لثورة ١٩١٩ .... ١١

...(٢) أم كلثوم
تتحدث عنها صحف العالم
باعتبارها ناصرية ٢٥

...(٣) الشيخ زكريا أحمد
يشارك فى ثورة ١٩١٩
بتوزيع المنشورات ٣٧

...(٤) روز اليوسف
الزعيم سعد زغلول يعلمها
فن التمثيل ! ٥١

...(٥) حكمت فهمى
شاهدت حصار الدبابات
لقصر عابدين عام ١٩٤٢ .... ٦٥

...(٦) منيرة المهدية
رشدى باشا يؤلف
وزارته فى عوامتها ٧٧

...(٧) بديعة مصابنى
وجاءت إلى القاهرة
يوم إعلان الاستقلال ٨٩

...(٨) امتثال فوزى
كان مصرعها .. نهاية
لعصر الفتوات ١٠٣

...(٩) تحية كاريوكا
الراقصة التى أخفت السادات
عن عيون الإنجليز ١١٧

...(١٠) محمد عبدالوهاب
عشرات الشخصيات السياسية
كانوا أصدقاءه... ١٢٧

...(١١) محمود المليجى
صاحب أكبر رصيد فى أدوار الشر
مجلس الشورى ١٤١

...(١٢) كمال الطويل
يشارك أم كلثوم فى إدارة مؤسسة
ناصر الإعلامية... ١٥٧

...(١٣) حمدى أحمد
الفنان الذى وقف فى صفوف
المعارضة يهاجم الحكومة... ١٧٣

هذا الكتاب

لاشك كان لانبعاثِ الحركة الثقافية فى مصر، مع مطلع هذا القرن.. العديد من المصادر التى زودت الوعى الوطنى.. وكان فى طليعة هذه المصادر.. الفن والفنانون.. إذ أصبح رافداً أساسيا من روافد الحركات التنويرية.. وقد تزامن مع انبعاث تاريخ الحركة الوطنية المصرية في العصر الحديث.. وطابور الفنانين المصريين وغير المصريين من الذين ساهموا بدموعهم ودمائهم وألحانهم وحنجرتهم في بعث تلك الروح.. طويل جداً وهو يمتد بحق منذ مطلع عام ١٩٠٠ وحتى الآن ونحن فى هذه الأوراق نحاول إلقاء الأضواء المبهرة على أهم الأدوار الوطنية المتميزة التى عايشها هؤلاء الفنانون، بل ومساهمات عدد كبير منهم فى تسجيل وكتابة جزء من تاريخ مصر.

أحمد غريب